ما بعد النهاية

1

# كنوز الملك سُليمان



إبراهيم محمد

# ما بعد النهاية




مع كل نهاية بداية جديدة

❖

رواية

**كنوز الملك سليمان**

❖

# ما بعد النهاية

مع كل نهاية بداية جديدة

❖


**تأليف**

إبراهيم محمد


❖

**تصميم وإخراج**

إبراهيم محمد

❖



❖


**للتواصل مع المؤلف**

Wordsonsnowtablet

Gmail | Facebook


❖

**تنبيه**

- هذا المؤَلَّف من قرِيحة مؤلِّفه، ولم يتم نقله أو اقتباسه من أي مصدر آخر.
- أي تشابه بين الرواية وأحداث وشخصيات واقعية هو محض مصادفة.
- لم يتم تدقيق هذه الرواية لغويًا
- تم إنتاج الصور باستخدام برامج الذكاء الاصطناعي، وباستخدام كلمات عامة دون وصف دقيق.

**ما بعد النهاية**




مع كل نهاية بداية جديدة

**ما بعد النهاية**




مع كل نهاية بداية جديدة

# 1

# كنوز الملك سليمان

تأليف

إبراهيم محمد

**للتواصل مع المؤلف**

Wordsonsnowtablet@gmail.com

## ما بعد النهاية

## مقدمة

**تمت.. لقد بلغنا النهاية وجاء الفراق.. لكنها لم تفارق وجداننا.. لم يطوها النسيان.. لم تطمرها التوالي.. وأنبتت سؤلات نطرحها بصمت.. ونخجل من البوح بها.. أين ذهبوا؟ ما أخبارهم؟ ماذا أصابهم؟.. مَن يأتي بجديدهم؟.. وهنا نحمل إليكم أحوالهم.. ونجيب السؤلات.. ونُكمل مِن بعد تمت.. ومن النهاية تبدأ الرواية..**

**إبراهيم محمد**

# 1- مذكرات جدي

**ألقت شمس الأصيل ظلالًا طويلة لأشجار الحديقة، المحيطة بمنزل جدي الضخم، ظلال جعلت المكان يبدو حزينًا كئيبًا على خلاف عادته، ونظرت في السقيفة الكبيرة المؤدية لباب المنزل.. إلى أصص النعناع والرياحين المُحيطة بها.. إلى الأريكة الخشبية داخلها بحشيَّتها البالية بجوار باب المنزل، بألوانها الباهتة التي تُخبر عن مجد غابر، كم سألت جدي وهو جالس عليها، بأن أحضر له حشيَّة أخرى، أفضل منها وأجمل، فيضحك ويضع يديه معا على عكازه الذهبي الموضوع بين ساقيه، ويقول جملته الغامضة:**

**- أنت لا تعلم شيئًا عن الذكريات، الشباب يصنعها، وهي تصنع بلسم الكِبَر.**

**ويشير بعكازه إلى أريكة على يساره ويدعوني للجلوس، ويضرب مائدة سداسية صغيرة من الخشب الأسود، عليها صينية بيضاء مذهبة فيها إبريق قهوة وفناجين بنفس الهيئة، وطبق زجاجي داكن الحمرة، ممتلئ بالتمر، ويقول:**

**- اسكب لنا قهوة الملوك، وأُسطُر ذكرياتك.**

**كنت ابتسم وأضحك واسكب لنا القهوة، كم كان صادقًا.. "أُسطُر ذكرياتك".. لقد مضى شهران على وفاته والحزن لا يتركني، كأنَّه تُوفي الآن.. ولم يبق منه إلّا الذكريات وهذا المنزل بما حوله، بلا وعي منّي اتجهت إلى الأريكة التي أجلس عليها عادة معه، ونظرت إلى أريكته.. إلى شجرة الجُوافة أمامي وقد أوشك ثمرها على النضوج، إلى أشجار الليمون والبرتقال.. إلى شجرة المانجو.. إلى شجرة النخيل.. إلى شجرة الكمثري.. وهبت موجة نسيم لتملأ الجو برائحة النعناع والرياحين وثمار الخريف.. نظرت إلى المائدة السداسية**

**الصغيرة الخالية من حملها المُعتاد.. وحاولت منع عبراتي من الانسكاب، وأنا اتذكر رهبته من فصل الشتاء، وقوله:**

**- الشتاء يحب الشباب، ويكره الشيوخ والعجائز.**

**لقد مات في الفصل الذي يحبه.. فصل الصيف.. شعرت بأنَّ حزني يزداد كلما غرقت في الذكريات.. مسحت عبراتي.. ونهضت إلى باب المنزل الخشبي الضخم العتيق، وأولجت المفتاح الذي حصلت من أبي وأدرته، وكأنني أخشى ما وراءه، دفعت الباب في أناة.. هذه المرَّة كان صرير الباب كنواح في مسامعي.. ومن الفُرْجة الصغيرة ظهر وجه (إحسان) الحزين.. يبدو أنَّها سمعت صوت المفتاح فوافتني عند الباب.**

**و(إحسان) هذه امرأة سوداء طويلة، تجاوزت الستين، تشي ملامحها بحُسْن طمس الزمان أكثره، وهي من كانت تقوم برعاية جدي، والعلاقة بينهما غريبة، ليست علاقة رجل بامرأة، أو سيِّد بخادمته، بل أشبه برجل بمستشاره أو مريض بطبيبه الخاص.. وكم من مرَّة سمعتها تجادله، وترفض أشياءً وتقترح أخرى.. وحين جرؤت مرَّة وسألت جدي أن يجد له خادمة أخرى أفضل منها، خاطبني بصرامة وجفوة لا أعرفها منه:**

**- لا تحشر نفسك فيما لا يعنيك.**

**نظرت إليَّ وفتحت الباب على اتساعه وهي ترحب بي:**

**- سَيِّد (فاروق)! أهلًا بك..**

**دخلت المنزل ووقفت في البهو الواسع، وأنا أنظر إلى أثاثه الجميل وتنسيقه الرائع، والتصميم الهندسي الفريد الذي يُخفي الأبواب التى تقود منه للأجزاء**

**الأخرى، وكررت سؤال نفسي، لم ترك أبي كل هذا وغادر ليسكن المدينة؟!**
**التفت لأواجه (إحسان) ويبدو أنَّ آثار الدمع في عينيّ واضحة لها، قالت:**
**- كأنَّه الآن يا سيِّد (فاروق)، كأنَّه الآن.**
**وغطت وجهها بطرف خمارها وأجهشت بالبكاء، اكتفيت بتذكير نفسي وأياها بأنَّ هذا هو حال الدنيا، وأننا لا نملك سوى الصبر والدعاء له بالرحمة، حتى هدأت وكشفت وجهها وهي تردد:**
**- إنّا لله وإنّا إليه راجعون.**
**انتظرت حتَّى جففت دموعها وتمالكت نفسها، فقلت لها بصوت أقرب إلى الهمس:**
**- جئت لأخذ أوراق جدي.**
**وبتمهل نظرت للطرف البعيد حيث مكتب جدي من البهو الذي نقف فيه، وسرت بتأني إلى قدس الأقداس، إلى المكان الذي رأيت جدي يدخل إليه ويخرج منه ولم أره يومًا "فيه".**
**وجدت (إحسان) تقطع طريقي بوجه صارم يقول:"لم تدخله وهو حيٌّ، ولن تدخله وهو ميّت".**
**توقفت ولم أتكلم، اكتفيت بالتحديق فيها، ومكثنا لحظات قصار نتبادل النظرات، حتَّى أفصحت الطريق، فأكملت إلى مكتب جدي.**

*** * ***

كانت حجرة مكتب جدي خليط غريب من المكتبة والمَتحف، جدرانها الأربعة - باستثناء جزء النافذة العريضة - حُجبت برفوف من الكتب تمتد من الأرض إلى السقف، ولم يخلُ رف من قطعة فنية أو أثر أو تمثال ما، حتَّى سطح مكتبه الضخم، وُضعت عليه قطع وآثار صغيرة من ثقافات مختلفة في تنسيق جميل، أبعد وصف الفوضى عنه، وفي الوسط مقعدان بينهما مائدة صغيرة، بحيث يكونوا بمعزل عن المكتب الضخم، والكرسي الضخم الجميل الزخرفة خلفه.

جلست على المقعد خلف المكتب، وأنا لا أعلم من أين أبدا؟

حاولت فتح الأدراج الكثيرة للمكتب، ولكنَّها جميعًا مغلقة، أخذت أفكر فيما سأفعله، وقاطعتني طرقات خفيفة مهذبة على الباب، لم ينتظر صاحبها السماح له بالدخول، ودخلت (إحسان) وهي تمد يدها إلي بحزمة مفاتيح، قالت:

- هذه مفاتيح أدراج المكتب والخِزانة.

مددت يدي لأخذ المفاتيح وانا انظر إليها، وأقول مُتسائِلاً:

- خِزانة؟!

قبضت يدها ولم تعطني المفاتيح، وتوجهت إلى أحد جوانب الحجرة تغطيه تمامًا رفوف الكتب باستثناء جزء في وسطه، حيث وُضعت لوحة حجرية أثرية كبيرة نُقش عليها شخصية ما، أولجت (إحسان) مفتاحًا في فم الشخصية وأدارته، المفاجأة أنَّ قطعة كبيرة من أرضية الحجرة ارتفعت أمام المكتب، في الفراغ بين المكتب والمقاعد في وسط الحجرة.

قمت واقفًا والدهشة تعصف بي، ولبعض الوقت تجمدت في مكاني، و(إحسان) تقترب من تلك القطعة، تمالكت نفسي ودرت حول المكتب لأجد نفسي أنظر إلى صندوقٍ حديدي ضخم، تمّ تمويه سطحه العلوي بزخرفة مطابقة لأرضية الحجرة، مما يجعل من المستحيل تمييزه.

ركعت (إحسان) على ركبتيها، واخذت تخرج عدة مفاتيح عن حزمتها، درت حول الصندوق لأرى ما تفعله، لأجد نفسي أواجه باب الخِزانة بمقبضها الغائر في الباب، وتضع خمسة مفاتيح في الفتحات الظاهرة على باب الخِزانة.

توقفت ونظرت إليَّ كأنَّها تتأكد أنني أشاهد ما تفعله، ثم أدارت المفتاح الرابع فالثاني فالأول فالخامس فالثالث، ثم أمسكت المقبض وجذبت الباب..

لا أستطيع وصف المشهد سوى بـ "بحر من الأنوار".. عشرات القطع والحلي واللآلئ والجواهر من مختلف الأشكال والألوان، رغم أنني لا أعرف الأحجار الكريمة والفروق بينها ولا الفرق بين الذهب والمعدن الأصفر، إلّا أنني أيقنت أنني أمام كنز عظيم وثروة كبيرة، رُبَّما تُقدَّر بعشرات الملايين ورُبَّما مئات.. وأمام هذا كُلّه وبالقرب من الباب تاج ملكي مرصع بالجواهر والأحجار الكريمة وصولجان ذهبي، لم استطع منع شهقة انبهار من الخروج قويّة من حلقي.

إحسان تركت هذا كُلّه واستدارت نحوي وفي عينيها نظرة إتهام، قالت:

- أهذا ما تبحث عنه؟

أبحث عنه! أنني لا أعلم بوجوده كي أبحث عنه! أعلم أنَّ جدي كان من كبار التجار، وأنَّه صال وجال في هذه الدنيا، وأنَّه توقف عن التجارة منذ عشرين

**عامًا، واشترى هذا المنزل خارج المدينة، ليستريح من العمل وعنائه، ويستمتع بحياته، لم أعلم يومًا أنَّه يملك هذا القدر الهائل من المال!**

**لم أفهم ما تقوله (إحسان)، فقلت بلا وعي:**

**- ماذا؟**

**وتداركت نفسي ونظرت إليها، قلت:**

**- لم أعلم بوجوده كي أبحث عنه.**

**صمت ونظرة بلا معنى في عينيها، قبل أن تقول:**

**- حقًا؟**

**واستدارت تُغلق باب الخِزانة، وتقول بحزم:**

**- الآن علمت.**

**ونظرت إليَّ وهي تدير المفاتيح بترتيب عكسي، وأردفت:**

**- هذه الأمانة من حق أبيك، من جدك إلى أبيك.**

**ووقفت عائدة إلى اللوحة الحجرية لتدير المفتاح وتخرجه لتضعه في جيبها، والخِزانة تغوص في أرض الحجرة وتختفي في معالمها، قالت بنبرة ذات مغزى:**

**- كاملة غير ناقصة.**

**استعاد عقلي مشهد الجواهر واللآلئ في الخِزانة، المشهد يُذْهب العقل، أنَّ من لا يدفعه المشهد لسرقة ما يراه، لهو شخص أمين.**

**نظرت إليها مؤنبًا، قلت:**

**- ما كان جدي ليُبقيك في بيته، ما لم يثق بك.**

**نظرت في عينيّ هُنيهة ثم أشاحت بوجهها، قالت:**

**- سأعطي المفاتيح لأبيك فقط، تستطيع أن تخبره بما رأيت.**

**لم أفهم سبب تراجعها عن إعطائي المفاتيح، ولكنني لم أهتم وأنا أفكر فيما رأيته.**

**صمتت ثم أردفت:**

**- هل تريد شيئًا آخرًا؟**

**لا أعلم ما الذي دفعني لقول هذا:**

**- جدي أوصانا أنَّ هذا البيت لك ما دمت حيّة، لا يحق لأبي أو أيّ مخلوق إخراجك منه، أو التصرف فيه ما دمت حيَّة.**

**حقًا، لقد أوصانا جدي بهذا، ولكن لا توجد مناسبة لقول هذا، رُبَّما شعرت بحاجتي لمكافأتها على أمانتها.**

**هزَّت رأسها ودون كلام سارت إلى الباب، ناديتها:**

**- إحسان.**

**التفتت إليَّ بعيون متسائلة، قلت:**

**- أدراج المكتب، ماذا فيها؟**

**هزَّت رأسها بأنَّها لا تعرف، ورفعت حزمة المفاتيح أمامها، واختارت مفتاحًا وهي تقول:**

**- لا أعلم، أغلب الظن، تحتوي أوراقًا ومستندات تخص جدك.**

**ومدت يدها بالمفتاح، وتناولته منها واتجهت للمكتب في حين غادرت هي.**

***

**لم يختلف ما وجدته في أدراج المكتب عن ما قالته (إحسان)، أوراق ومستندات تخص جدي وأملاكه، وانهمكت في قراءتها، ولم يقاطعني سوى دخول (إحسان) حاملة فنجان قهوة، ارتشفته وأنا أواصل قراءة ما وجدته، أظلم المكان وصارت القراءة صعبة، نهضت لأشعل أنوار المكتب وأكملت ما أفعله، حتَّى قاطعني صوت آذان المغرب قادمًا من النافذة من مسجد بعيد، نهضت أتمطى ودرت حول المكتب إلى النافذة، اتكأت بمرفقي على حافتها الخشبية العريضة انظر إلى السماء الصافية، إلى حديقة المنزل، كانت عناية (إحسان) والبُسْتاني بالحديقة واضحة، والحرص على سقايتها وتشذيبها أعطاها جمالًا رغم الغروب الذي أخفى بعضه، توجهت إلى خارج حجرة المكتب، وتوضأت وصليت المغرب في فسحة في البهو على سجادة صغيرة، جلبتها (إحسان).**

**وكما هي العادة في الصلاة، تذكرت أمرًا مختلفًا في حجرة المكتب، أكملت صلاتي والهاتف لا يتوقف عن الرنين، مع السلام الثاني وجدت (إحسان) واقفة تنتظرني، قالت:**

**- إنَّه والدك، تستطيع محادثته من هاتف المكتب.**

**شكرتها وأنا أطوي سجادة الصلاة وأعطيها لها، توجهت للمكتب، وأغلقت الباب خلفي، سرت إلى المكتب، ورفعت سماعة الهاتف لأتحدث مع أبي، وطمأنته بأنني سأعود في أقرب وقت، وضعت سماعة الهاتف، وذهبت إلى ما جال بخاطري في الصلاة، إلى الرف الذي يحتوي مجموعة ملفات بدلًا من الكتب أو الآثار.**

هي مجموعة ملفات تحمل أسماء بخط جدي، "رحلة البرازيل"، "رحلة الصين".. تصفحت أولها.. كانت مذكرات بخط جدي يصف فيها يوميات رحلته إلى (البرازيل)، لم أكن أعلم أنَّ جدي يكتب يومياته، تصفحت الأخرى، كانت على غِرار الأوَّل، يبدو أنَّ جدي يكتب يوميَّات الرحلات المهمة، أو التي تركت في نفسه أثرًا ما، استوقفني اسم غريب على أحد الملفات.. "لعنة الملك توالا".. غريب هذا.. أعدت الملفات الأخرى إلى موضعها، ونظرت للملف الذي أبقيته في يدي وقد جذبني عنوانه الغريب، فتحت الملف وبدأت أقرأ..

تدور اليوميات حول رحلة جدي إلى جنوب إفريقية، وأثار استغرابي الأسلوب الذي كتب به جدي هذه اليوميّات، لم يكن جافًّا، بل مليئًا بالمشاعر والاِنفعالات، وانهمكت في القراءة، وأُستغرقت حتَّى أوقفني شعور بالتعب لأجد نفسي لا زلت واقفًا مكاني امام رفوف الكتب، توجهت إلى المقعد في منتصف الحجرة، واستكملت القراءة..

غريب هذا.. أشعر أنني قرأت هذه اليوميّات من قبل.. هذه الأسماء.. (آلان كوترمين).. (السير هنري كيرتيس).. الكابتن (جون جود).. لقد مرَّت بي.. أين قرأتها؟ أنا على يقين أنني قرأتها أو مرَّت بي في مكان آخر.. أنا لم أقرأ هذه المذكرات من قبل.. ولم أدخل حجرة المكتب يومًا.. لا يدخلها سوى اثنين.. جدي و(إحسان).. أين مرَّت بي؟.. أو أين قرأتها؟.. شغلت نفسي بمحاولة التذكر.. حتَّى أعياني الأمر.. فتركته.. نظرت إلى ساعة الحائط الذهبية التي تُزيّن وسط الرف الأخير من رفوف الكتب المقابلة للمكتب،

**الساعة هي العاشرة مساءً، لقد تأخَّر الوقت.. كيف لم أسمع آذان العشاء؟!.. يجب العودة..**

**غادرت حجرة المكتب، لأجد (إحسان) جالسة على اريكة، تشاهد فيلمًا على شاشة تلفاز يطل من صوان، لأدرك أنَّ اليوم هو الأحد، نظرت إليَّ ثمّ إلى الملف الذي أحمله بيدي اليسرى، قلت لها:**

**- سأغادر الآن، وسيقوم أبي أو محام بمراجعة الوثائق، وبخصوص تلك الأشياء فأمرها منك لأبي.**

**لم أحب قول "الكنز" أو "الجواهر" ولا أعلم لماذا؟، وأكَّدت:**

**- كما قلت، هذا بيتك من جدي إليك ما دمت حية..**

**توقفت هُنيهة وأكملت:**

**- المرَّات القادمة سنأتي ضيوفًا.**

**حاولت أن تتماسك، ولكن الاِنفعال غلبها، وأجهشت بالبكاء، وهي تحجب وجهها بكفيها..**

**واسيتها ونفسي وانتظرت إلى أن هدأت.. وأكملت:**

**- سنتكفَّل بكل ما تحتاجينه..**

**شخصت ببصرها إلى الأرض، وقالت بصوت خنقه الدمع:**

**- بارك الله فيكم، جدَّك تكفَّل بكل شيء، تكفَّل بمن تهتم بي وبالبيت وبالحديقة وبمن يحرس البيت، لا أريد سوى الرحمة له والخير لكم.**

**شكرتها وغادرت المنزل.. وقد صرت غريبًا عنه..**

*** * ***

## 2- كنوز الملك سليمان

وقفت في شرفة حجرتي وقت الضُحى، انظر إلى حيّنا، بمنازله البيضاء الجميلة التي لا تتجاوز طابقين، وشوارعه الواسعة النظيفة وعلى جانبيها أشجار ذهب الخريف بكثير من أوراقها، والسيارات تظهر بين الفينة والأخرى، خفضت نظري إلى حديقتنا المحاطة بسور حجري أبيض اللون له بوابة حديدية تقابل مدخل منزلنا، وتحول بينه وبين رصيف الطريق، إلى أشجارها التي تحاول بيأس الحفاظ على أوراقها، وأصص الزهور والنباتات وأحواضها المُصطفَّة على جانبي الممر من البوابة إلى باب المنزل، وانتقل بصري إلى شجرة وارفة الظلال كأنَّها تتحدى زحف الخريف، وتحتها مائدة مستديره حولها ثلاثة كراسي، اكتست جميعًا بالأبيض، وأبي ببدانته اللطيفة وشعره الذي غزاه الشيب تمامًا، ونظارته الذهبية وقد أمسك بكتاب يطالعه، مُتخذًا الكرسي المقابل للمنزل مقعدًا له.

أبي هنا؟ بعد ما أخبرته به بالأمس بعد عودتي؟ أعلم أنَّ أبي لا يرى في المال إلَّا وسيلة للعيش المريح، ولكن المفاجأة والدهشة التي أصابته بوجود "كنز"، جعلتني أحسب أنَّ ذهابه إلى منزل جدي سيكون أوَّل شيء يفعله اليوم! وها هو يجلس في مكانه المعتاد كأنَّ شيئًا لم يكن.

نزلت إليه وألقيت بالتحية وردها دون أن يترك كتابه، اتخذت مجلسي إلى يساره، وأنا أفكر بعمق..

دون أن يرفع نظره عن كتابه، سأل:

- مُشتاق لأميرة الحسن والجمال؟

كان يشير إلى زوجتي، التي ذهبت لزيارة والديها منذ يومين، أجبته:

**- بالتأكيد، لماذا لم تذهب؟**

**سألني دون أن يترك كتابه:**

**- إلى أين أذهب؟**

**استغربت سؤاله، فقلت بتلقائية:**

**- إلى بيت جدي، إلى حيث تلك الأشياء.**

**لا أعلم لماذا تبدو كلمات كـ "الثروة" أو "الكنز" أو "الجواهر" ثقيلة على لساني..**

**أبعد رأسه عن الكتاب وقرن حاجبيه كأنَّه يدقق في كلمة ما في الكتاب، وقال دون أن يدير رأسه:**

**- هذه الأشياء في موضعها منذ سنين طويلة، وستبقى في موضعها، لا أظن أنَّ بضعة أيام أو بضع ساعات ستُحدث فارقًا.**

**لم أجبه، لم أحب أن أبدو متلهفًا للحصول على تلك "الأشياء"، بل شعرت أنَّها مكافاة أو هدية لوفاة جدي، وأثار هذا نفورًا في قلبي، لذلك تركت الأمر وأُستغرقت في التفكير في مذكرات جدي. لم أنم بالأمس حتَّى أكملت قراءتها، يسيطر علي شعور بأنني قرأت هذه المذكرات من قبل في كتاب ما، أو مرَّت بي يومًا، على الأقل من البداية إلى المنتصف تقريبًا، أمَّا ما بعد ذلك فأنا على يقين أنني لم أعرفه من قبل، أين؟.. أيـ...**

**- فيم تفكر؟**

**سألني أبي بعد أن توقف عن القراءة وجذب النظارة إلى طرف أنفه، ونظر إليَّ من فوقها، أجبته:**

**- أنَّه أمر يشغلني، يشغلني جدًّا.**

**دون أن يرفع نظره عنّي، قال:**

**- لا تفكر في تلك الأشياء، أنَّها..**

**استفزني الإشارة إلى تلك الأشياء، وأنساني الأدب مع أبي، فقاطعته:**

**- ليس تلك الأشياء.**

**توقفت هُنيهة، وأكملت أخبره عن مذكرات جدي، وسردت له ملخصًا للنصف الأوَّل منها، النصف الذي ينتابني شعور بأنَّه مرَّ بي، وأخبرته بشعوري عن الأمر..**

**أغلق كتابه بعد أن جعل سبابته مرجعًا، وضمّه إلى صدره، نظر أمامه، قال:**

**- رُبَّما سمعتها من جدك.**

**هززت رأسي بالرفض، قلت:**

**- أنا على يقين بأنني لم أسمعها من جدي.**

**خيَّم الصمت علينا، وكلانا غارق في أفكاره، حتَّى تكلم أبي، سأل:**

**- هل ستذهب معي اليوم بعد العصر؟**

**نظرت إليه وهو ينظر إلى امامه بعيون لا ترى، سألته:**

**- إلى أين؟**

**أجابني بتنهيدة طويلة:**

**- إلى منزل جدك.**

**رغبت في الاعتذار والتحجج بأمر ما، ولكن معرفتي بمشاعر أبي، وحبه الصادق العميق لجدي، ورهبة الذهاب إلى هناك فلا يجده في حديقته يفعل شيئًا ما، جعلني أشفق عليه وأقبل الذهاب معه لأشد أزره، وكيف لا وهذه مشاعري..**

* * *

**- فاروق، الليلة أريد هدوءًا تامًا.**

**قالتها زوجتي وهي جالسة أمام التسريحة، تقوم بما تفعله عادة قبل النوم، سألتها وأنا في الفراش أتصفح كتابًا عن الإقتصاد:**

**- لماذا هذه الليلة؟ أنتِ تعلمين أنني أحب الضجيج ودعوة أهل الحي إلى حجرة نومي للسهر والمرح كل ليلة.**

**ابتسمت لدُعابتي، أكملت ما تفعله ونهضت إلى صوان صغير بجوار التسريحة، ويتمم هيئتها، امتلأ بالكتب والروايات، تناولت منه كتابًا، والتفتت إليَّ تهزه بيدها، قائلة:**

**- لأنني اشتريت اليوم رواية جديدة، نصحني بها البائع.**

**نظرت إلى الرواية، قلت:**

**- حقًا، عمَّا تدور؟**

**أجابتني وهي تقترب من فراشنا وتقلِّب أوراق الرواية:**

**- عن مجموعة من المغامرين يبحثون عن كنز.**

**وضعت كتابي على صدري، وقلت باهتمام:**

**- رواية مغامرات! لم أعهدك تحببين هذا النوع من الرواية.**

**تسلقت السرير وحبت حتَّى بلغت موضعها بجواري، وقالت بمرح:**

**- لا أحبه، كما أخبرتك، نصحني بها البائع قائلًا إنَّها من الأكثر مبيعًا، وتناسب الجميع، الصغار والكبار، الرجال والنساء.**

**وأدارت الرواية ليصبح غلافها الأمامي قبالة وجهي، وقالت بنبرة مسرحية:**

**- كنوز الملك سليمان.**

**كنوز الملك سليمان.. كنوز الملك سليمان.. كنوز الملك سليمان.. ألف جرس قُرعت في رأسي في أكبر مهرجان عرفته جمجمتي..**

**بلهفة اختطفت الرواية من يدها وسط دهشتها، وكالمجنون قلَّبت أوراقها إلى المقدمة..**

**«أعتقد أن من الأفضل..**

**..**

**..**

**آلان كوترمين »**

**هذا الأول.. وقفزت إلى الصفحة التالية.. لأجد الثاني في عنوان الفصل الأوَّل "كيف قابلت سير هنري كيرتيس؟".. "الكابتن جون جود".. الثالث..**

**قلت لزوجتي بحزم:**

**- أنا سأقراها الآن.**

**قرنت حاجبيها وظهر الضيق على وجهها وهي تهتف:**

**- ماذا؟**

**قلت معتذرًا وأنا أعود إلى بداية الرواية:**

**- اغفري لي، ولكنها تكشف سرًا ابحث عنه منذ تسعة أشهر.**

**اتكأت بظهرها على خشبة السرير، وعقدت يديها، وتكلمت غاضبة:**

**- أيُّ سر تكشفه هذه الرواية؟**

**أجبتها وأنا أضع كتابي السابق على الصوان الصغير الملاصق للفراش، بجوار المصباح الصغير، وأرفع الغطاء عني، وأجيبها:**

**- مذكرات جدي.**

**جاءني صوتها متعجبًا:**

**- مذكرات جدك!**

**أكدت وأنا أنهض عن فراشي، قاصدًا شرفتنا:**

**- نعم.**

**أخبرتها بالأمر في حينه، وهي تعلم عمَّا اتحدث، ولا شك أنَّ استغرابها سببه عدم تركي للأمر أو نسيانه.**

**وفي الشرفة أضأت المصباح، واتخذت مقعدي على أريكة الخيزران الصغيرة، المواجهه للحديقة والطريق، وأزحت المنضدة بقدمي، وبدأت القراءة، لم أكمل السطر الأوَّل حتَّى قاطعني صوت زوجتي الغاضب يقول:**

**- وأنا! ماذا سأفعل؟**

**التفت إليها لأجدها عاقدة يديها، وتتكئ بكتفها على إطار باب الشرفة، وتنظر إلي في غضب.**

**حاولت أن أُخفف عنها وأنا أعلم مقدار الإحباط الذي أصابها، ابتسمت وقلت:**

**- حتمًا ستجدين في مكتبتنا الصغيرة رواية لم تقرأيها، أو كتابًا يثير اهتمامك.**

**تركت مكانها وتوجهت لمقعد الخيزران الوحيد، في ركن الشرفة البعيد جهة الحديقة، جلست عليه ووضعت عضدها الأيمن على حافة الشرفة واتكأت برأسها على قبضتها، قالت بترغيب وهي تنظر إليَّ:**

- لم لا نشتري تلفزيون، أنهم يعرضون عليه أفلامًا وأشياء كثيرة جميلة؟

قلت بدهشة:

- تلفزيون؟

كانت دهشتي من اقتراحها هذا الأمر، وهي التي لا تشاهده معنا في بهو منزلنا، وذكرت لها هذا الأمر.

قالت:

- أشعر بالحياء في حضور والديك، لا استمتع بما أشاهده.

لم تفارقني الدهشة، وأنا أقول متعجبًا:

- بالحياء؟ من أبي وأمي؟

قالت في ضيق:

- انت تعلم أنني لا أجيد التحكم في نفسي، أخاف فأصرخ، ابتهج فأضحك، أحزن فأبكي، هذا الأمر يحرجني.

طبيعتها ليست غريبة عنّي، بل هي ما جذبتني إليها عند لقائنا أوَّل مرَّة، وهذه هي المرَّة الأولى التي أعرف أنها تستحي من طبيعتها.

سألتها مستغربًا:

- ولم لم تخبريني بهذا من قبل؟

أدارت رأسها جهة الحديقة دون أن ترفعه عن متكئه، أجابتني:

- لا أعلم، لم تحضر مناسبة كهذه.

خفق قلبي رأفة بها، وبحنان قلت:

- أتعلمين؟

عادت تدير رأسها إليَّ، أردفت:

- أوّل شيء نفعله بعد عودتي من العمل غدًا، هو شراء تلفزيون لنا.

نهضت من مقعدها وتطلق صيحة ابتهاج وفرح وتقول:

- حقًا؟

أجبتها وأنا سعيد ببهجتها:

- نعم، حقًا.

ركضت إليَّ وانحنت تعانقني وتقبل وجنتي بسرور، وهي تقهقه، وشعرت بدهشة كبيرة، كيف ترغب في هذا الأمر بشدة ولم تخبرني به من قبل، قبلت وجنتها وقلت لها ويديها حول عنقي:

- هل هناك أمر آخر تخفينه عنّي؟

قارعت أرنبة أنفي بأرنبة أنفها، وأجابتني بمرح:

- الكثير، ولكن كُلّ شيء في وقته.

واعتدلت وهي ترفع يديها عنّي، وتقول:

- سأتركك تقرأ الرواية.

شكرتها وتوجهت هي مغادرة الشرفة، وعدت إلى الرواية، لتقاطعني مرَّة أخرى، التفت إليها لأجدها تطل عليَّ برأسها من باب الشرفة بوجه قلِق، وتقول:

- فاروق؟

- نعم؟

- أنت لم تقل هذا كي تصرفني كي تقرأ الرواية؟

- هل فعلت ذلك من قبل؟

- لا، ولكنك تعلم أنَّ كلام الليل مدهون بالزيت.

**ضحكت، قلت:**

**- لا تخشي شيئًا، كلامي منقوش على أحجار منزلنا.**

**ابتسمت وتمنت لي سهرة ممتعة، وتمنيت لها نومًا هنيئًا، وعدت إلى الرواية..**

**استُغرقت في القراءة، وأخذتني الرواية إلى عوالمها، بدءًا من لقاء (آلان كوترمين) بالسير (هنري كيرتيس) والكابتن (جون جود) في سفينة أثناء عودة الأوَّل إلى بيته في (دربان) في إقليم الناتال، ومعرفته أنَّ السير يبحث عن شقيقه (جورج) الذي التقاه (آلان) مرتين ويعرفه باسم (نيفيل)، المرَّة الثانية كانت أثناء ذهابه للبحث عن كنوز في مكان يقال له جبال الملك سليمان، وحاول (آلان) مساعدة (جورج) في مسعاه بوصف الطريق من خريطة حصل عليها من مستكشف برتغالي مات أثناء سعيه في الوصول إلى تلك الجبال، ويقرر السير (هنري) الذهاب إلى حيث ذهب أخيه، ويطلب من (آلان) مرافقتهم، ويقبل (آلان) ويتوجه الثلاثة برفقة بعض الخدم إلى قرية (سيتاندا) وهي نقطة الانطلاق إلى جبال الملك سليمان، حيث يلتحق بهم رجل من الزولو يُسمى (أمبوبا) ليكون خادمًا للسير (هنري)، وينطلقوا جميعًا في رحلة مرهقة في الصحراء، كادوا أن يهلكوا لولا العثور على عين ماء، ويصلوا إلى جبلي (صدر شيبا) بداية طريق جبال الملك سليمان، وفي الطريق يلتقون بمحاربي قبيلة (كوكوانا) الذين يحرسون الطريق ويقتلون من يعبره، ولكن عادة غريبة للكابتن (جود) تنقذهم ويحسبهم المقاتلون سحرة، ولم ينكر هؤلاء هذا بل زادوا عليه أنهم قادمون من النجوم، ويذهبون للقاء الملك الظالم (توالا) الذي يحكم قبيلة (كوكوانا) بمعونة الساحرة (غاغول)،**

**ويقتعونه بأنهم سحرة حقيقيون، وفي كوخهم يكشف (إمبوبا) حقيقته لعمه (انفادوس) الذي يخدم الملك، وأنَّه الملك الحقيقي المُختفي للقبيلة، ويريه علامة "الوحش الزاحف" الموشومة على خاصرته، ويطلب عون عمه في استعادة عرشه، ويوافق عمه وأنه يستطيع إقناع بعض القادة بذلك، ولكن القادة لم يكتفوا بالعلامة، بل طلبوا علامة سحرية، تظهر قوة القادمين من النجوم وتثبت حق (إمبوبا) في الملك، ويقوم الكابتن (جود) بخديعة وأنَّه سيخسف القمر غدًا في موعد محدد، ويتحقق خسف القمر، ويخرج القادة مع جنودهم إلى خارج المدينة، ويلحقهم الملك (توالا) بجنوده ويحاربهم، فيهزمونه، ويطلب الملك أن يقاتل السير (هنري) رجلًا لرجل، فيقتله الأخير، ويستعيد (إمبوبا) حقه، ويصبح ملك (كوكوانا)، ويكافئ رفاقه بأن يرسلهم إلى جبال الملك سليمان حيث كهوف الماس مع (فولاتا) الفتاة التي أنقذوها من الموت وبصحبة الساحرة (غاغول) التي تعرف أسرار المكان، وفي جبال الملك سليمان وداخل مكان سري في الجبال، تقتل الساحرة الفتاة وتحاول الفرار، ولكن باب المكان الحجري يُغلق ويسحق الساحرة تحته، ويصير (آلان) ورفاقه سجناء في المكان، حتَّى يجدوا لهم طريقًا يقودهم للخارج ويعودون لكوخهم في قبيلة (كوكوانا)، ويقررون العودة لأوطانهم، فيخبرهم (انفادوس) عن طريق مختصر واكثر راحة ينتهي بخضرة وأشجار، ويصلون ذلك المكان ويجدون كوخًا فيه رجلان، أحدهما أخ السير (هنري) والثاني مرافقه، ويعود الجميع باستثناء (آلان) إلى بريطانيا، وتنتهي الرواية برسالة من السير (هنري) إلى (آلان) يقول فيها أن الماسات التي حصلوا عليها**

**باهظة الثمن، ويطلب منه اللحاق بهم ليأخذ نصيبه، ويقرر (آلان) اللحاق بهم.**

**هذه الرواية التي كتبها (آلان كوترمين) ونشرها السير (هـ.رايدر هاجارد) تحت عنوان (كنوز الملك سليمان) في عام 1885.**

*** * ***

## 3- أين جدي

كانت الرواية مطابقة تمامًا لمذكرات جدي مع اختلاف المنظور، الرواية التي نشرها السير (هـ.رايدر هاجارد) كانت من منظور (آلان كوترمين)، ومذكرات جدي من منظوره.

أغلقت الرواية وقد انتصف الليل، ووضعتها على المنضدة أمامي، وأنا أفكر فيها..

لماذا لم يذكر (آلان كوترمين) جدي؟ لماذا لم يكتب الرواية كاملة واكتفى بجزء منها؟

لا أعلم إجابة للسؤال الأوَّل، رُبَّما العنجهية الاستعمارية للإنجليز في ذلك الوقت، استطيع تخمين جواب السؤال الثاني، رُبَّما هو الشعور بالخديعة والخزي والعار، وانقلاب حالهم من فرسان إلى مجرمين، رغم إصلاحهم للأمر.

شعور بالضيق والغضب يغمرني، من الظلم والإجحاف بحق جدي، لماذا أُخفي دوره؟ بأي حق صار هؤلاء فرسانًا ومغامرين وحُرم هو؟ كيف نال هؤلاء الشهرة الكبيرة ولم يُصب هو شيئًا منها؟

لا أعلم ماذا أفعل؟.. كيف أُنصف جدي؟ كيف أُعيد حقه؟ كيف أُظهر دوره فيما حدث؟ لقد مضى عليها ما يزيد عن سبعين عامًا، كيف؟.. كيف؟.. كيف؟.. فكرت كثيرًا.. فكرت عميقًا.. وأنهكني التفكير.. ونمت في مكاني..

* * *

**- سأنشر مذكرات جدي.**

**قلتها وأنا جالس مع أبي وأمي على مقاعدنا البيضاء حول منضدة مستديرة، بعد غروب الشمس، في منطقة خالية من الزهور والنباتات من حديقة منزلنا، وأحد مصابيح الحديقة يضيء مجلسنا، في آخر أيام يونيو التي تشي بحرارة الصيف.**

**كان هذا بعد أسبوعين من تلك الليلة، نظر إليَّ أبي، قال:**

**- ألا تظن أنَّ هذه شأن خاص بجدك؟**

**قلت وأنا أصرُّ على قراري:**

**- جدي - رحمه - قد مات، ولا أظنّ ان نشرها يسيء إليه، بل سيكشف الحقيقة، ويُظهر شجاعته وبطولته، وما قام به في تصحيح الأمور وإرجاع الحق لأصحابه.**

**نظرت إليَّ أمي متعجبة وهي تقول:**

**- ولكن!، ألم يمر قرابة ثمانين عامًا على تلك الأحداث؟**

**التفت إليها مُجيبًا:**

**- نعم، ورغم مرور هذه المدة الطويلة، لا يزال الجزء المنشور منها يلاقي نجاحًا ورواجًا بين الناس، لا أحد سوانا يعلم أنَّ المنشور هو جزء من الحقيقة وليس الحقيقة كاملة.**

**قرن أبي حاجبيه وهو ينظر إليَّ، قال:**

**- وماذا يعود عليك من هذا؟**

**التفت إليه، وأجبته:**

**- أن يعرف الناس الحقيقة كاملة، ويعلموا حقيقة وبطولة جدي، وأنَّه كان مغامرًا شجاعًا، وليس تاجرًا همه جمع المال فقط.**

**سألني أبي بدهشة:**

**- وهل نشرك هذه المذكرات سيفعل ذلك؟**

**أجبته بتأكيد:**

**- نعم، لأنني سأُعيد نشرها بنفس الاسم "كنوز الملك سليمان"، وهذا سيساهم في نشرها، خاصة بعد نجاح الجزء المنشور منها.**

**مالت أمي نحو أبي وهي تنظر إليه وتقول:**

**- أليس هذه الأمور لها حقوق وقوانين تحكمها؟**

**قاطعنا حضور زوجتي حاملة صينية صغيرة عليها كؤوس عصير المانجو البارد، ألقت علينا التحية بمرح، ووضعت الصينية على المنضدة، وناولت أبي كأسه فأمي ثم أنا واتخذت لها مقعدًا وهي تحمل كأسها، وأكملنا حديثنا..**

**كانت أمي تري أن نشري لهذه المذكرات بنفس اسم تلك الرواية الشهيرة وتشابه جزء منها مع الرواية، قد يثير قضايا قانونية ومُعضِلات أخرى، في حين يرى أبي أن هذا الأمر غير مهم، ولكنّه سيساندني إذا قررت فعله، وزوجتي تؤيدني وتدعمني، بشرط أنْ يكون اسمي على غلاف المذكرات المنشورة.**

*** * ***

**حسنًا، لقد قمت بنشر مذكرات جدي، لم أقم بنشرها كاملة، فقط الجزء المُكمل للجزء المنشور من قِبَل السير (هـ.رايدر هاجارد)، وقد حافظت على سردها من منظور جدي، واكتفيت بملخص قصير في بدايتها عن الأحداث السابقة، وكي انتفع بنجاح الجزء المنشور سابقًا، وأحقق انتشارًا كبيرًا لمذكرات جدي، فقد نشرتها بنفس الاسم "كنوز الملك سليمان"، وسيجد القارئ في الصفحات التالية ما نشرته من مذكرات جدي..**

*** 

# 4- نحس مستمر

**انتهت مغامرتنا في جبال الملك سليمان، وعدنا جميعًا إلى (دربان) في إقليم الناتال، تصافحنا وافترقت عنهم، وصحب (آلان كوترمين) السير (هنري كيرتيس) والكابتن (جون جود) إلى بيته، وذهبت إلى مكان إقامتي القديم في شارع (جراي) في الحي التجاري من دربان، في ضيافة صديقي التاجر العُماني (سالم).**

**وانشغلت في تجارتي ومحاولة شراء قصب السكر الخام والفحم أو حتى أخشاب الساج والزان، وبلغني خبر مغادرة السير (هنري) ومعه الكابتن (جود) إلى إنجلترا بعد يوم واحد من افتراقنا، والتقيت بعدها بـ (آلان كوترمين) مرتين، الأولى أثناء بحثي عن العاج عند أحد التجار، ولم يكن هذا غريبًا، لقد عُرف عن (آلان) أنَّه تاجر وصياد ماهر للأفيال، وكان سعيدًا مُبتهجا بالأخبار القادمة من السير (هنري) من إنجلترا ودعوته له بالقدوم إلى هناك، وأفصح لي عن رغبته في تلبية الدعوة، وأنه سيغادر غدًا الجمعة الرابع من أكتوبر في السفينة المتوجهة إلى إنجلترا.**

**المرَّة الثانية التقيته في نهاية أكتوبر في سوق (فيكتوريا)، وقد أصابه الهزال وبدا عليه المرض، دُهشت من رؤيته وقد حسبته غادر إلى إنجلترا، صحبته إلى (حارة العرب) المعروفة في السوق، وأنا أسأله عن أحواله.**

**وفي متجر صديق يمني يبيع التوابل كالقرنفل والكركم والهيل، أخذنا جانبًا وجلسنا نتحدث، ونحن نتناول القهوة العربية التي أحضرها رجل من الزولو يعمل في المتجر.**

لا شكّ أنَّ منظرنا معا ونحن نتناول القهوة يثير الاستغراب، خاصة في أوقات تمتليء بالعنجهية والغطرسة الاستعمارية البريطانية، والتمييز العنصري بينهم وبين سواهم.

نحن العرب -وأيضًا الهنود- نُسمى بـ "الغرباء"، سواء جئنا الآن أو عشنا هنا منذ آلاف السنين، والمضايقات في أعمالنا التجارية لا تتوقف، أما ما يتعرض له الأفارقة - أصحاب الأرض - فحدث ولا حرج، لقد كانوا يتعرضون للأهانة والأذى الجسدي العلني لأسباب أقل ما يقال عنها أنها لا تُذكر، وتُسلب أراضيهم وتُهدم أكواخهم حسب المزاج أو الطمع الاستعماري.

- نحس لم أر مثله من قبل، لم استطع المغادرة إلى إنجلترا، كلما عزمت الذهاب طرأ أمر يفسد ذهابي، تارة المرض وتارة عطب في السفينة، وتارة لا يوجد متسع، وتارة أمر يمنعني عن اللحاق بالسفينة، تجارتي كسدت، ومنذ عودتنا لم اصطد فيلًا واحدًا، يدي لم تعد ثابتة، والأفيال نادرة وتفر سريعًا، وحُمَّى لا يعلم لها الأطباء سببها تأتيني ليلًا، وكوابيس أرى فيها (غاغول) تتقافز كالقرود وهي تقول "أنا أطيع الملوك ثم تطيعني الملوك"...

لم يكن في كلامه شيئًا غريبًا عنّي، فأنا لا أجد ما أبحث عنه لتجارتي، فإن وجدته كان فاسدًا أو باهظًا، يزيد عشرة أضعاف عن ما كان، وأكثر ما أدهشني هو الجزء الأخير من حديثه عن الحمى والكابوس الذي تظهر فيه (غاغول)، فهذا ما يصيبني، حذو القذة بالقذة، وأكمل هو:

- وقد أصاب السير (هنري) مرض أرقده الفراش، والكابتن (جود) تعرض للكسر في ساقه وهو يتعافى بمشقة شديدة.

**زادت دهشتي أضعافًا مضاعفة، وصرت أضرب أخماسًا في أسداسًا لما أصابنا جميعًا، ماذا حدث؟ هل ألمَّ بنا سحر من (غاغول) قبل موتها؟**

**أخبرته بأحوالي لينال نصيبه من الدهشة والعجب، ولم ينبس أحدنا ببنت شفه وهو يتفكَّر في أمرنا جميعًا، وتحدث (آلان) بما في خاطري، قال:**

**- هل أصابتنا لعنة؟**

**سألته وأنا أعرف الجواب:**

**- ممن؟**

**قال:**

**- من الساحرة (غاغول)، قبل موتها.**

**- ألا تخشى عقاب (اجنوسى)؟**

**- رُبَّما كانت تخطط للهرب والفرار بعيدًا، أو كانت تعلم أننا سنغادر قريبًا ولن يكشف أمرها أحد.**

**أخذنا نفكر في أمر تلك الساحرة، ونقلّب الأمر من جميع الوجوه، حتَّى سألته:**

**- وماذا سنفعل؟**

**ردّ سؤالي بسؤال:**

**- بماذا؟**

**أجبته:**

**- بأمرنا، كيف نعلم حقيقة ما أصابنا؟ هل هي لعنة أم سحر؟ وكيف العلاج؟**

**لم يجبني واستُغرق في التفكير، بعد حين قال:**

**- سأبحث في الأمر.**

**سألته عمَّا سيفعله ولكنه لم يعطني جوابًا، وطلب أن نلتقي مرَّة أخرى، فأخبرته بمكان إقامتي، وأنني عادة أكون حاضرًا بعد فترة العصر، تصافحنا وافترقنا..**

*** * ***

**كنَّا في أوَّل نوفمبر والجو ربيعي والسماء صافية ونسيم خفيف يهبُّ علينا في ضُحى يوم جميل، وأنا ومعاوني (بونغاني) نسير في الطرق الرملية لقرية من قرى الزولو في ضواحي مدينة (دربان)، وبدا منظر (بونغاني) غريبًا بين قومه بسرواله وقميصه العتيقين بخلاف عادتهم وهي الاكتفاء بلف جلود الحيوانات حول الخصر.**

**لا زالت محاولاتي مستمرة في العثور على بضائع أعود بها، وتحقق لي أرباحًا تغطي نفقاتي وتضمن استمرار تجارتي، ومجيئي لهذه القرية محاولة يائسة للعثور على بضائع كالعاج أو ريش النعام من الزولو، وتحقيق ربح كبير.**

**و(بونغاني) يسألني بالإنجليزية -التي يجيدها- عن هزالي وأمارات المرض على وجهي، وأنا أجيبه بالتعلل بالتعب وكثرة أعمالي، ونقف عند هذا وننتقل إلى آخر، ونسأل هذا وذاك، و(بونغاني) يتحدث بلغة قومه الزولو ويترجم لي، ولا أجد ما أسعي إليه، حتَّى بلغنا نهاية الطريق الذي نسير فيه، هنا لا أعلم ماذا حدث؟ فجأة أظلمت الدنيا من حولي و.. لم أشعر بشيء..**

* * *

لا أعلم كم من الوقت غبت عن الوعي، ولكنني أفقت وشمس الظهيرة تشوي جسدي وتجعل مُخّي يغلي في جمجمتي، رفعت رأسي دون أن أنهض، لأجد نفسي في ساحة واسعة في القرية، و(بونغاني) يقف عند خاصرتي ينظر بخوف بعيدًا، وعلى مسافة عشرين مترًا مني يحيط بي أهل القرية في دائرة كما يحيط السوار بالمعصم، وعلى مسافة أقرب منهم بمترين، رجل ينظر إليَّ ووجهه مُغطى بطلاء أبيض هو طمى النهر المقدس، ويضع قلادة من أسنان الضبع والقرد، وندوب كالهلال على صدره، وله أظافر طويلة وقد وضع حزام من جلد البقر مزيّن بخرز أزرق وأحمر، ولف حول خصره جلد نمر مرقط، ويحمل في يده اليُمني عصا من خشب التمر الهندي الأسود، أعلم هذه التفاصيل الدقيقة لأنني أرى صورة مألوفة لساحر من الزولو، صورة آلفها جيدًا وأعلم أنها تثير غضب وخوف البريطانيين.

ينظر إلى السماء مع رفع العصا لأعلى ببطء وهو يهزها بعنف ومعها ذراعه الأيسر، وهو يصيح بكلمات لا أفهمها، وفجأة يغرس العصا في الأرض بقوة ويده اليسرى تشير إليَّ في نفس اللحظة ويهتف بقوة بكلمة ما، رددها خلفه الأهالي بذعر وهم يتراجعون للخلف بنصفهم العلوي.

وتكرر ذلك عدة مرات، كأنهم يؤدون أغنية ما، وشعر (بونغاني) بي والتفتت إليَّ والخوف والذعر على وجهه، هتف:

- سيِّد (حسَّان)، أنَّه يقول إنَّك ملعون.

واصل الساحر الصياح و(بونغاني) الترجمة:

**- الأرض تكره أن تحمل آثار أقدامك.. تنفر من ظلك عليها.. الشمس تبغض لمس جسدك بنورها.. الهواء يتمنى لو لم تولد حتى لا يتلوث بك.**

**وبين الحين والآخر يضرب الساحر الأرض بعصاه وهو يشير إليَّ ويهتف بكلمة يرددها الأهالي خلفه بخوف، الكلمة التي علمت معناها فيما بعد وتعني "ملعون".**

**اعتدلت في موضعي، ليزداد خوف الأهالي وتتسع دائرتهم أكثر من حولي، ويعلو صياح الساحر بكلمات وهو ينظر إلى السماء ويرفع عصاه على امتداد ذراعه ويده اليسرى تشير إليَّ، و(بونغاني) يواصل:**

**- إننا نبرأ منه.. من أفعاله.. من كلامه.. من ظله على الأرض.. من...**

**قاطعت ترجمة (بونغاني) بصوت مبحوح من جفاف حلقي وعطشي للماء، قلت:**

**- (بونغاني).. اسأله لم أنا ملعون؟**

**سؤال كنت أعلم جوابه في قلبي رغم إنكاري له، نظر إليَّ (بونغاني) في دهشة لم تستطع طرد الخوف من وجهه، لوهلة بدا كأنه لم يفهم قولي، قبل أن يجثو على ركبتيه ويحبو نحو الساحر، حتَّى صار على بعد بضعة أمتار منه، توقف ودون أن يرفع نظره تكلم، ورد الساحر بهتاف قوي وهو يهز قبضتيه في الهواء، دون أن يترك عصاه، وأنهى كالعادة بضرب الأرض بعصاه، ليعود (بونغاني) يحبو على أثره دون أن يعطي الساحر ظهره، حتَّى اصطدم بي، فالتفت إليَّ، ودون أن يتركه الخوف، قال:**

**- إنَّه يقول إنَّك ملعون، ومعك آخرون، دخلتم أرض محرّمة عليكم، ألبستم الأفعى ثوب الملوك، وسفكتم الدم الحرام، الملك الذي لا يرى ذهب إلى أرض**

**الظلام ولن يعود، ومكانه على العرش في أرض النور، الأفعى تضع تاج الملوك، لا تنام، بين دم ودم تسعى الليل والنهار، ملعون أنت، ملعون من دخل الأرض المحرَّمة، تصيبكم لعنة الذي لا يموت، تُحصى عظامكم، وتسعون للظلام وتبقون في أرض النور.**

**كلام لا أفهمه، ولكنني أدرك معناه العام، بصوتي المبحوح قلت لـ (بونغاني):**

**- اسأله كيف نرفع اللعنة عنَّا.**

**نظرة صغيرة، استدار بعدها يحبو نحو الساحر، ويتكرر ما سبق، قال لي:**

**- تُقتل الأفعى بيد من سفك الدم الحرام، ويعود الملك الذي لا يعود، ويسير من أرسله إلى أرض الظلام إلى أرض الظلام، مضت خمسة أقمار وبقي خمسة أقمار، بعدها تُحصى العظام، وتسعون لأرض الظلام وتبقون في أرض النور.**

**تحاملت على نفسي ونهضت من موضعي، لتتسع دائرة الأهالي أكثر، وترتفع أصواتهم أعلى بالكلمة التي آلفتها، قلت:**

**- أخبره كيف نُعيد الملك الذي لا يعود، وأننا نحتاج سبعة أقمار حتَّى نعود إلى الأرض المحرَّمة وليس خمسة.**

**عاد (بونغاني) يحبو نحو الساحر ومن ثم يعود إليَّ، قال:**

**- يقول أقول ما أخبرتني به الأرواح، لا أملك لك عونًا سوى أن أحضّك على الإسراع.**

**عدت إلى مكان إقامتي في مسكن صديقي العُماني، ليستقبلني في بهو بيته الذي يشغل الطابق الثاني من متجره، ليخبرني أنَّ إنجليزيًا سأل عنّي، وكان متلهفًا للقائي وأنَّه أخبره بعودتي بعد العصر، شكرته وذهبت إلى مضجعي**

**لاستريح، غلبني النوم، واستيقظت على صوت طرقات قوية على باب حجرتي، دُهشت وأنا أرى المكان غارقًا في الظلام، تحسست طريقي إلى الباب، فتحته لأجد صديقي (سالم) يطرق بيده اليمنى ويحمل قنديلًا بيده اليسرى وينظر إليَّ بدهشة، قال:**

**- ماذا أصابك؟ لقد نمت وقتًا طويلًا.**

**لا أعلم ماذا أجيبه، قلت:**

**- لا أعلم، يبدو أنَّني كنت مُتعبًا جدًّا.**

**لم يرفع نظره عنّي، قال:**

**- لقد عاد الإنجليزي.**

**لم استطع تمييز الوقت، سألته:**

**- ما الساعة الآن؟ هل حان وقت صلاة العشاء؟**

**بتعجب أجابني:**

**- صلاة العشاء؟ لقد أوشك وقتها.**

**قلت:**

**- حسنًا، أخبره أن ينتظرني قليلًا.**

**- حسنًا.**

**قالها وهو يستدير، وأشعلت عود ثقاب لأرى طريقي، وأشعلت فتيل قِنديل حجرتي، وذهبت للكنيف وبعده توضأت في الطِسْت، وصليت العصر والمغرب.**

**ونزلت للمتجر في الطابق الأوَّل، لأجد (آلان) جالساً على مقعد، صافحته وأنا انظر إلى الآخر الهزيل على مقعد أمامه، وقد حُجب بقطعة قماش من قمة رأسه حتَّى أخمص قدميه، في حين انهمك (سالم) في ترتيب بضاعته.**

**سألني (آلان):**

**- هل نجد مكانًا بمعزل عن الناس؟**

**نظرت إلى (سالم) الذي أشار بيده لأعلى، أجبت:**

**- نعم، هيا بنا.**

**وصعدت بهم السلم الخشبي الذي يقود من داخل المتجر إلى باب بهو المسكن في الطابق الثاني، و(آلان) يقود الآخر الهزيل وهو ممسك بطرف القماش بطرفي سبابته وإبهامه، ويتكلم بلغة الزولو التي يجيدها، واضح أنَّه يرشده الطريق، دخلنا البهو المُضاء بمصباح زيتي، واشعلت مصباحين آخرين كي تتحسن الرؤية ويظهر جمال البهو بأرائكه ومقاعده ومناضده الصغيرة ذات الزخرفة العربية، التي جلبها (سالم) من (عُمان)، واتخذنا مجلسنا، أنا على مقعد بمسندين و(آلان) على آخر يقابلني، والآخر على أريكة واسعة على يميني، مُنجَّدة بزخارف جميلة وعليها وسائد صغيرة موشَّحة بخيوط ذهبية، نهض (آلان) وأزاح القماش عن الشخص المجهول.**

**يبدو أنَّ هذا هو يوم السحرة، الشخص هو صورة عن ساحرة من الزولو التي يألفها من يعرف الزولو، بشعرها المُضفّر بأمعاء الثعبان المجففة، ووجهها المغطى بطين أبيض ممزوج برماد الأموات، وقلادة من عيون البوم، ومخالب نحاسية في أصابعها، وصدرية من أصداف النهر المقدس،**

**تصدر صوت خشخشة مع كل حركة منها، وتحيط خصرها إلى أسفل الركبتين بجلد ابن آوي المُزيّن بأسنان القرد.**

**لوهلة فزعت من صورتها ولكنني تمالكت نفسي بسرعة، في حين رفعت هي يدها اليسرى بمخالبها النحاسية وأشارت بسبابتها نحوي فور رفع القماش عنها، وصرخت بكلمة وهي تهز بيدها اليُمنى مروحة من ريش البوم.**

**هتف (آلان):**

**- ملعون.**

**لم تكن هذه الكلمة في حاجة لترجمة، عدد ما سمعته منها اليوم جعلني احفظها عن ظهر قلب، ولا جديد هنا، ثم أدارت سبابتها إلى (آلان) وصرخت بالكلمة مرة أخرى، وانطلق الأخير يتحدث للساحرة بلغتها، وهي لا تكف عن تحريك مروحتها، وتنقل نظراتها المشمئزة من (آلان) إليّ، ثُمّ حان دورها لتتكلم، بقوة، بغضب، و(آلان) يترجم لي بالإنجليزية، ويحاول أن يجاري سرعتها..**

**- ملعون، ملعون، ملعون، ملعون، أربعة أرواح ملعونة، دخلوا أرض (سليمان)، (سليمان) ملك ملوك من يرون الشمس، جلبوا معهم الشرّ خادمًا، شر استبدل جلد الحملان بجلده، وكان أبوه في عونه، ملعون قتل الملك الذي لا يري، وصار الخادم سيدًا، وفي أرض (سليمان) ملك ملوك من تظلهم السماء، تُسفك الدماء، الشر ينتقم ممن طردوه من أرضهم، ولُعن الأربعة بدعوة المساكين، وقريبًا تُحصى عظامهم، ويسارعون في طلب الظلام، وتُغلق الأبواب، ويبقون في النور، حي ليس بحي ولا بميت، لعنة سلَّطها عليهم الذي لا يموت.**

**فيما بعد عرفت أنَّ من قابلتهم هم عرّافون في مجتمع الزولو، وليسوا سحرة، وأنَّ الزولو يخشون السحرة وينبذونهم، في حين يحترمون العرّافين ويعتقدون أنّ العرّاف يستطيع التواصل مع أسلافهم في العالم الآخر، وينقل رسائل بين العالمين، ومعتقدات أرض النور وأرض الظلام والدنيا والآخرة والحساب والجنة والنار ليست من معتقدات الزولو، لا ريب أنها محاولة من العرّافين لتقريب الأمر إلى مخيلة الإنجليز، الموت عند الزولو هو انتقال من هذه الحياة لحياة أخرى مشابهة لهذه ولكن بلا معاناة.**

**هذا الكلام لا يعني شيئًا لغير الزولو، ما يراه الإنجليز أنَّ هؤلاء سحرة ينشرون الرعب والخراب في المكان، الغريب هنا هو علاقة (آلان) بتلك الساحرة، كيف وصل إليها؟ وكيف وثقت هي به كي تأتي معه؟ إنَّ علاقة الإنجليز بأهل البلاد الأفارقة هي العداء والكراهية، علاقة بين مستعمر بغيض يدّعي الحضارة ويستولي على الأرض ويسرق خيراتها ويقتل ويستعبد أهلها، وبين صاحب الأرض البسيط المُتَّهم بالهمجية لأنَّه يحاول حماية نفسه وأرضه من الغرباء القادمين من وراء البحار.**

**صمتت الساحرة وأدار (آلان) وجهه إليَّ، سأل:**

**- أفهمت شيئًا مما قالته؟**

**أجبته:**

**- فهمته كُلّه، أسألها ماذا نفعل كي نرفع اللعنة؟**

**ترجم (آلان) سؤالي إليها، وثبت قائمة من مجلسها وهي ترفع رأسها لأعلى، وتصرخ و(آلان) يترجم:**

**- يُقتل الشر ويعود الملك، ويبصر بعد العمى، قبل غروب القمر العاشر.**

**كيف يعود الملك وقد مات؟، ورأيت بأم عيني رأس الملك (توالا) المقطوع على ركبتيه في مقبرة ملوك (كوكوانا)، وما قصة العمى هذه؟ لقد ذكرها الساحر اليوم، قال "الملك الذي لا يرى"، ماذا يعني هذا؟**

**قطع مجلسنا مجيء (سالم) من متجره وقد افزعه صراخ الساحرة وهُرع إلينا، يسألنا ماذا هناك؟ أثار رؤية الساحرة خوفه، وأسرعت إليه أوضح إليه اليسير من أمرنا، واختلقت حكاية أبرر فيها أمر الساحرة، الشك في عينيه أخبرني أنَّه لا يصدق، ولكنني همست له ووعدته بإخباره القصة كاملة حين يغادر ضيوفي.**

**جعلت أفكاري السابقة أسئلة، طرحها (آلان) على الساحرة، وردت على لسانه:**

**- مَن مات يعود ويسود، ومَن تخدم الملوك يخدمها الملوك، وتصير لهم عيون.**

**كلام سحرة لا معنى له، مَن مات لا يعود، والملك (توالا) لن يعود، أما قولها "مَن تخدم الملوك يخدمها الملوك"، فتذكرني بمقولة الساحرة (غاغول) حين تظهر في الكوابيس وهي تتقافز كالقرود وتقهقه وتقول "أنا أخدم الملوك، ثم يخدمني الملوك"، هل تعني هذه الساحرة أنَّ الملك (توالا) كان أعمى من سحر (غاغول) ويرى بعينيها وينفذ أوامرها ورغباتها؟**

سألني (آلان) وهو ينظر إليَّ:

- هل فهمت شيئًا؟

أجبته بكلمة واحدة:

- اجنوسى.

* * *

## 05- العودة إلى هناك

**أعاد (آلان) حجب الساحرة بقطعة القماش، فما كان مشهد ساحرة من الزولو ليمر مرور الكرام في شوارع (دربان)، وسيتعرض لهما الجيش الإنجليزي رغم أنه إنجليزي، ورُبَّما يُتهم بممارسة السحر ومعاونة ساحرة من الزولو، ورافقته إلى باب المتجر، حيث كانت عربة يجرها حصانان يقودها هندي تنتظرهما، ودعته مع تدبير موعد للقائنا في اليوم التالي في ذات المتجر.**

*** * ***

**- الآن، أوضح الأمر لي، لم تقل سوى كلمة "اجنوسى"، ثم طلبت تأجيل الأمر لليوم، ماذا تعني؟**

**سألني (آلان) متعجبًا، ونحن جلوس عصرًا في ذات متجر صديقي اليمني في سوق (فيكتوريا).**

**أجبته:**

**- اجنوسي أو الذي عرفناه باسم (إمبوبا)، ليس ملكًا ولا حق له في الملك، لقد خدعنا جميعًا بمعونة عمه (انفادوس)، واستولى على عرش مملكة (كوكوانا)، ونحن ساعدناه، وقتل السير (هنري) الملك (توالا)، الملك الشرعي والحقيقي لمملكة (كوكوانا).**

**انكر (آلان):**

**- كيف هذا؟ لقد رأيت أفعال الملك (توالا) وكيف يقتل الأبرياء، ويذبح النساء.**

**- كان مسحورًا.**

**- مسحورًا؟ وما أدراك؟**

**- كلام (غاغول) قبل موتها "أنا أخدم الملوك ثم يخدمني الملوك"، لقد سعت لتكون في خدمته ثم سحرته وصار خادمًا لها، يرى ما تراه ويفعل ما تريده هي.**

**- وما شأنها بـ (اجنوسى)؟**

**- لا أعلم، رُبَّما كانت تعاونه، ورُبَّما كانت تعمل لحسابها الخاص، في النهاية لقد ارتكبنا جميعًا جريمة بمعاونة (اجنوسى) في القضاء على الملك الحقيقي، كنت دائم الشك في (اجنوسى).**

**- ولماذا لم تقل شيئًا؟**

**- أخبرت السير (هنري) بشكوكي وأفعال (اجنوسى) المريبة وعن الصدفة الغريبة التي جمعتنا به قبل عبورنا الصحراء إلى مملكة (كوكوانا)، ولقائنا عمه (انفادوس) في بداية طريق جبال الملك سليمان، وتحجج هذا بأنه يحرس الطريق، والحقيقة أنَّه ينتظر (اجنوسى)، وما كان حضورنا إلّا صدفة خدمت أطماع (اجنوسى) وعمه في الاستيلاء على الحكم.**

**تعجب (آلان) من حديثي، سألني:**

**- لماذا لم تخبرنا بهذا من قبل؟**

**وددت أن أقول أن الغطرسة والعنجهية الإنجليزية في السير (هنري)، منعته من الاستماع إليَّ، وحذرني من الحديث في هذا الأمر، حتَّى لا أثير البلبلة والنزاع.**

**واختصرت الرد بقولي:**

**- خشيت أن أكون متوهمًا.**

**أخذ (آلان) يفكر وبعد برهة صمت، سأل:**

**- والآن، ماذا سنفعل؟**

**- ندعو السير (هنري) والكابتن (جود) للقدوم هنا.**

**- هل تظنهما سيأتيان؟**

**- حتمًا سيأتيان، اللعنة أصابتنا جميعًا.**

**- وهل سنقول لهما أننا سنعود إلى هناك؟**

**- وهل من سبيل لإزالة اللعنة دون الذهاب إلى هناك، والتكفير عن ما اقترفناه؟!**

**- هل تظنهما يؤمنان بأمر اللعنة؟**

**- وكيف لا يؤمنان؟! اللعنة تطاردنا منذ عودتنا من جبال الملك سليمان، كساد تجارتنا، الحُمى الليلية، كابوس (غاغول)، الهزال الذي أصابنا بلا سبب، مرض السير (هنري)، كسر الكابتن (جود) الذي لا يبرأ، حديث السحرة عن العظام التي تُحصى.**

**الجملة الأخيرة ضربت وجهه كالقذيفة، وشحب وارتد للخلف، وكررها ببطء:**

**- العظام التي تُحصى.**

**نظرت إلى وجهه الشاحب، سألته:**

**- ماذا هناك؟**

**لم يجبني، بل أزاح ساقه من أسفل المنضدة، وكشف عنها، لأرى ما أخافني، كانت ساقه قد جفت، وصارت جلدًا على عظم، وتستطيع ان ترى تفاصيل قصبة الساق تحت الجلد الذابل وتحصي الأوردة، وبلا وعي مني، قلت:**

**- تُحصى عظامكم، وتسعون للظلام وتبقون في أرض النور.**

**رفعت نظري عنها إلى عينيه، قلت:**

**- يجب أن نسرع، لا نملك الكثير من الوقت.**

**قال وقد ظهر الخوف على وجهه:**

**- مضت خمسة أقمار، وبقيت خمسة أقمار، ماذا تعني؟**

**- مضت خمسة شهور وبقيت خمسة شهور.**

**- ثُمّ؟**

**- ثُمّ لا يرفع اللعنة شيء إذا انقضى الأجل.**

*** * ***

**لم يمض يوم على لقائي بـ (آلان)، حتَّى التقيته مرَّة أخرى في ظهيرة اليوم التالي في بيته الصغير المبنى من الطوب اللبن، وسقف من الحديد، ويتكون من ثلاث غرف ومن حوله حديقة لا بأس بها، وفي الحجرة التي اتخذها (آلان) مكتبًا له، شرعنا فور وصولي في كتابة رسالة إلى السير (هنري) والكابتن (جود)، ندعوهما إلى الحضور إلى (دربان)، وحرصنا على إظهار اللعنة وآثارها علينا جميعًا، وأنَّ لا سبيل لرفعها إلّا بعودتنا إلى جبال الملك سليمان، خاصة بعد "وصول أخبار موثوقة أنَّ ما اقترفناه كان خطأً عظيمًا"، وضرورة تصحيح الأمور وإعادتها لنصابها الصحيح.**

**وقام (آلان) بإرسالها، والآن علينا الانتظار من أربعة أسابيع إلى ستة أسابيع حتَّى تصل رسالتنا إلى (لندن) والانتظار نفس المدة لاستلام الرد، وكنّا نأمل أنَّ السير (هنري) سيرد في وقت استلام الرسالة برد عملي، وهو الحضور**

مع الكابتن (جود) إلى (دربان)، وهذا يعني مضيء ثمانية أسابيع على الأقل، أي ما يقارب شهرين، ويبقى من المدة الممنوحة لنا ثلاثة أشهر، ثلاثة أشهر كي نذهب إلى جبال الملك سليمان، و"إصلاح" ما فعلناه هناك، وبمعرفتي بالطريق وأحوالها أعلم أنَّ هذا مُحال، ما لم يدبر الله لنا الأمر.

ومضينا نحصي الأيام على أحر من الجمر، ولا نعلم هل سيأتيان أم يرفضان أم يتجاهلان؟

وهل سيكفي الوقت عند وصولهما لبلوغ جبال الملك سليمان؟ وماذا سنفعل إن لم يأتيا؟ هل نستسلم لقدرنا ونخضع لما يصيبنا؟ أم نتخذ قرارنا بالذهاب إلى هناك بمفردنا؟

كنّت أشارك هذه الأفكار مع (آلان)، ونتحدث فيها كل حين في بيته، بعد انتقالي للسكن معه بعد إصراره الشديد على ذلك، وأن من شأن ذلك أن يوفر الكثير من الوقت، وكان على حق.

كانت الأيام تمضي بطيئة، نكتوي فيها بنار الانتظار، والأمر الجيد فيها أن ساق (آلان) لم تزدد سوءًا.

في اليوم التاسع من إرسال الرسالة، تفتق ذهن (آلان) عن فكرة عبقرية، وهي إرسال رسالة عبر التلغراف في مكتب بريد (دربان)، هذا يعني وصول رسالتنا إلى (لندن) خلال ثلاثة أيام على الأكثر، العقبة هنا هي التكلفة الباهظة للتلغراف، وأنْ لا تتجاوز الرسالة عشر إلى عشرين كلمة، وتكلفة الكلمة عشرة شلنات على الأقل.

لم نطل التفكير، فالمصير الذي ينتظرنا يجعل التفكير في المال ترف لا نبالي به، وأحوالنا المالية لا بأس بها رغم النحس الشديد الذي أصابنا بعد عودتنا

**من جبال الملك سليمان، وبسرعة كتبنا "سير (هنري) والكابتن (جود)، نحن جميعًا في خطر، احضرا فورًا، آلان"، وقمنا بإرسالها فورًا بعد دفع تكلفتها الكبيرة.**

**واقترحت أن نبدأ في الإعداد للرحلة من الآن، وبغض النظر عن حضور السير (هنري) والكابتن (جود) من عدمه، ووافقني على ذلك، يجب أن ننقذ أنفسنا على الأقل إن لم نستطع إنقاذ الجميع.**

**الأخبار الجيدة بلغتنا بعد خمسة أيام من إرسال رسالة التلغراف، بحضور ساعي من مكتب البريد يحمل رسالة مختصرة واضحة "نحن في الطريق، السير (هنري كيرتيس)"، ابتهجنا بهذه الأخبار الطيبة، الرسالة تحمل اسم السير (هنري)، وحتمًا الكابتن (جود) معه، لقد استخدم ضمير الجمع، بعد أربعة أو ستة أسابيع على الأكثر سيكونان هنا، أي في نهاية ديسمبر.**

**فرحتنا لم تطل، أنَّ ما تبقى أمامنا بعد وصولهما هو ثلاثة أشهر، وهي حتمًا لا تكفي للذهاب إلى هناك، الطريق في الظروف المثالية يحتاج ثلاثة أشهر لبلوغ قرية (سيتاندا) أقرب نقطة للإنطلاق إلى جبال الملك سليمان، وموسم الأمطار الغزيرة والعواصف الرعدية يمتد من نوفمبر إلى مارس في إقليم الناتال، وهذا يعني طرق موحلة ومستنقعات كثيرة، يصعب على الخيول والثيران عبورها، كما أنها تمتلئ بالتماسيح والمخاطر، وماذا عن أحوال الطريق في إقليم الترنسفال ومحمية بيتشوانالاند وروديسيا الجنوبية وروديسيا الشمالية؟ الرحلات في هذا الوقت من العام تستغرق من أربعة شهور إلى ستة أشهر، ما العمل؟ كيف نتجاوز تلك العقبة الكؤود؟**

*** * ***

# 06- قافلة بلا طريق

**قال (غوريب) وهو يهزّ رأسه في قنوط:**

**- هذا محال، لا يمكننا عبور هذا الطريق في ثلاثة أشهر أو حتَّى أربعة أشهر.**

**وافقه (صموئيل) بهز رأسه، قال:**

**- لقد اخترتم أسوأ وقت من السنة للقيام بهذه الرحلة.**

**كنا جلوسًا في الحجرة التي اتخذها (آلان) مكتبًا من بيته، والوقت عصرًا والحرارة والرطوبة العالية توشك أن تُزهق أنفاسنا، والعواصف الرعدية التي تبدأ عادة بعد الظهر تهز الأرجاء.**

**كان الرجلان (غوريب) وهو رجل إفريقي من الخويخوي، والآخر (صموئيل) وهو رجل إنجليزي من (لندن) ويعيش في (دربان)، الرجلان سائقان وخبيران بالطرق من (دربان) إلى (سيتاندا) في روديسيا الشمالية، وقد تجاوزا العقد الرابع، وظهرت الخبرة والحكمة على ملامحهما وفي حديثهما، العلاقة بينهما تثير الدهشة والاستغراب، لم تكن الغطرسة الاستعمارية حاضرة في سلوك (صموئيل) مع (غوريب)، بل الزمالة والاحترام، وهذا أمر غريب لمن عرف الإنجليز وطباعهم، وسلوك (غوريب) خلا من الحذر والكراهية نحو (صموئيل)، يمكن وصف علاقتهما بشركاء العمل، والتفاهم والمشورة والتعاون السمة الغالبة على حديثهما الذي يدور بينهما بلغة الخويخوي التي تحتوي حروفًا نستخدمها نحن العرب أصواتًا للتعبير عن الانفعالات وليس الحديث، ويتحول للإنجليزية حين الحديث معنا.**

**قال (آلان):**

**- رُبَّما لو علمنا بعقبات الطريق، قد نساعدكم في تجاوزها أو تذليلها.**

**رفع (غوريب) نظره إليه، سأل:**

**- ماذا ستفعل مع الأمطار والطرق الموحلة؟**

**قلت:**

**- أخبرني أنت ماذا تفعلون لتخطي تلك العقبات؟**

**أجابني (صموئيل):**

**- نستخدم عجلات عريضة للعربات مع سلاسل حديدية حولها.**

**أكمل عنه (غوريب):**

**- هذا للرحلات القصيرة، من (دربان) للمدن القريبة حولها.**

**آلان:**

**- وما الذي يمنع استخدامها في رحلتنا الطويلة؟**

**(صموئيل):**

**- هذا قطرة في بحر العقبات، ماذا ستفعل مع ذبابة (تسي تسي) في مناطق الحدود بين روديسيا الجنوبية وروديسيا الشمالية؟**

**نظرت إلى (غوريب)، قلت:**

**- لا ريب أنَّكم تملكون حلًا لهذه المعضلة؟**

**نظر (غوريب) في عيني، وبعد هُنيهة، أجابني:**

**- نملك، ولكنه باهظ الثمن.**

**هذا هو بيت القصيد، المال، لم يكن عائقًا يمنعنا أو عقبة نسمح لها أن تعيق طريقنا.**

انهمكنا في الحديث عن العقبات وكيف تذليلها، حتَّى لم يبق للرجلين حججًا أو أعذارًا، وحرصنا على استخدام الحلول التي تختصر زمن رحلتنا إلى شهرين وبضعة أيام.

هنا حدث أمر زادني إيمانًا أنَّ الله يبارك ما نفعله، دخل خادم (آلان) من الزولو، ليخبره بحضور ضيوف يرغبون في لقائه، خرج (آلان) للقائهم، وبعد وقت صغير انطلقت منه صيحة عظيمة، صيحة جعلتني أثب من مقعدي وأُهرع إلى باب البيت، لأجد (آلان) يحتضن رجلًا بقوة، وآثار هذا السلوك دهشتي واستغرابي مما عُرف عن الإنجليز برودهم الشهير، وآداب مصافحة لا يتجاهلونها أبدًا، لم استطع معرفة الرجل في الوهلة الأولى ثمّ أصابتني دهشة عظيمة، صرخت:

- الكابتن (جود).

كان هو كما عرفته، متوسط الطول، عريض المنكبين، وشعر أسود، يلفت الأنظار بحسن مظهره ونظافته، وشخصيته اللطيفة، والعدسة الزجاجية على عينه اليمني، لم يتغير فيه شيء سوى هزال خفيف أصابه.

ترك أحضان (آلان) وتقدم إليَّ يصافحني بحرارة لم اعتدها منه، ويقول كلامًا أكثر إثارة للدهشة:

- سيِّد (حسَّان)، كم أنا سعيد برؤيتك، لا تعلم مقدار اشتياقي إليك، ورغبتي في لقائك.

لا أصف علاقتي بالكابتن (جود) سوى بأنها تقليدية جدًّا، لذا أثارت استغرابي كلماته، ولكنني تجاهلت الأمر ووضعته مع جملة الأمور التي تثير استغرابي منذ عودتنا من جبال الملك سليمان، وقابلته بترحيب كبير.

**شغلنا الترحيب بالكابتن ومفاجأة قدومه إلينا، حتَّى هتف الكابتن:**

**- لقد نسينا السير (هنري).**

**هتفت مع (آلان) في نفس اللحظة:**

**- السير (هنري)! هل حضر معك؟**

**أشار إلى وراء ظهره، قال:**

**- لقد حضر معي.**

**اندفعت مع (آلان) إلى خارج البيت، ليُوقفنا منظرًا حزينًا تحت رذاذ المطر في حديقة البيت، رجلان من الأفارقة يحملان مِحفة عليها رجل عليه غطاء يقيه المطر، وبجواره يقف رجل إنحليزي يبدو من هيئته وحقيبته أنه طبيب، ومن خلفهم بالقرب من بوابة الحديقة يقف سبعة رجال أشداء يبدون إنجليزًا ويحملون البنادق، ومن وراءهم عربات الخيول التي أحضرتهم.**

**لم نر السير (هنري) فيهم، ولكننا اندفعنا بلا وعي إلى المِحفة، لنجد مَن كان يومًا السير (هنري)، الرجل القوي الضخم في الثلاثين من عمره، بشعر أشقر ولحية مثلها، وعيون رمادية وملامح دقيقة، صار رجلًا في السبعين بشعر ولحية شاحبتين، وعيون باهتة ينظر بهما إلى السماء، وشيء طويل كعصا غليظة يمتد تحت الغطاء من صدره إلى منفرج فخديه.**

**صحنا في جزع:**

**- السير (هنري).**

**ببطء أدار رأسه إلينا، ورسم ابتسامة بهتة وتمتم بكلمات لم نسمعها.**

**رفعت رأسي عنه إلى الكابتن (جود) الذي تبعنا ووقف بجوار المحفة من الجهة المقابلة، وسألته:**

**- ماذا أصابه؟**

**أجابني وهو ينظر في عيني:**

**- ما سيصيبنا جميعًا.**

**أبقيت نظري عليه هُنيهة قبل أن أعود به إلى السير (هنري)، من يصدق أنَّ هذا هو الرجل نفسه الذي رأيناه آخر مرَّة قبل ثلاثة أشهر.**

**بحذر رفع (آلان) الغطاء عن صدر الرجل و..**

*** * ***

**"وتُحصى العظام وتسعون لأرض الظلام وتبقون في أرض النور"**

*** * ***

**كانت يداه عظامًا عليها طبقة رقيقة من الجلد، وتقبضان بقوة على بَلطة، أفزعنا ما رأيناه، ودبَّ فينا الخوف، وتراجعنا بقوة مع شهقات خافتة، لقد كانت ساق (آلان) مقارنة بهاتين اليدين أفضل ألف مرَّة.**

**وسارع الكابتن إلى إعادة الغطاء على صدر السير، لوهلة لم نتكلم وخيَّم الصمت علينا، حتَّى العواصف الرعدية صمتت واختفت.**

**أدخلنا السير (هنري) إلى غرفة نوم (آلان) وبقي معه الرجل وقد عرفنا أنَّه طبيبه الخاص، وغادر الحمالان، في حين انسحب الباقون إلى حجرة المكتب التي ضاقت بشدة، وظهرت الغطرسة والعنجهية الاستعمارية حين طلب أحد الرجال السبعة من (غوريب) النهوض عن مقعده ليجلس هو، مما آثار غضبنا، وتكلم (آلان) بصرامة:**

**- أيُّها السادة، إنَّ السَيِّد (غوريب) هو ضيف في بيتي، ومقامه هنا لايقل عن مقام أحدكم، ومُرحب به كما هو مرحب بكم، ومن لا يقبل هذا لا أقبل به في بيتي.**

**قال أحدهم في صلف:**

**- هذا.. سيِّد..**

**وقال آخر:**

**- لقد أهنت التاج أيُّها السَيِّد، حين ساويتنا به.**

**وقال آخر:**

**- كيف يكون هذا الهمجي المُتخلف في مقام سادته الإنجليز.**

**هبَّ (صموئيل) واقفًا:**

**- أيُّها السادة، لا أسمح لأحدكم بالإساءة إلى صديقي، ولا ينس أحدكم أننا جميعًا ضيوف في بيت السَّيِّد (آلان).**

**قال آخر:**

**- صديقك! هل..**

**قاطعه (آلان):**

**- أيُّها السادة، أرجو منكم جميعًا احترام ضيافتي وضيوفي، ومن يرى غير ذلك، فليغادر بيتي.**

**قال رجل:**

**- سَيِّد (آلان)، لم تترك مكانًا للاِحترام حين ساويت بين السادة والعبيد، بين الحضارة والهمجية.**

**والتفت للآخرين قائلًا:**

**- هيا بنا.**

**التفت أحدهم إلى (آلان)، قال:**

**- حفظ الله الملكة، أنت تهين التاج أيَّها السَّيِّد، لن يمر هذا الأمر مرور الكرام.**

**رد الكابتن (جود):**

**- حفظ الله الملكة، لا أظن أنَّ الملكة تقبل إهانة ضيافة السَّيِّد (آلان)، أو هذه التصرفات.**

**والحقيقة أنَّ الملكة ترضى بهذا التصرف وأكثر، لا يمكن أن يصدق أحد في الدنيا أنَّ الغرور والعنجهية والغطرسة والتصرفات المُخزية الاستعمارية للإمبراطورية البريطانية في مشارق الأرض ومغاربها لم تبلغ مسامع الملكة الكريمة.**

**غادر الرجال البيت وعدنا إلى مجلسنا في حجرة المكتب، ولم نتكلم زُهاء ربع ساعة، حتَّى قاطعنا دخول الخادم ليشعل مصابيح الحجرة، بعد أن أوشك نور النهار على الانطفاء وحل الغروب، وسأل (آلان) عما يريده قبل أن يذهب، أوصاه الأخير بالعناية بالسير (هنري) وطبيبه، وقضاء حوائجهما.**

**وقام (آلان) بتعريف الكابتن بالآخَرين، بعد أن قدَّمه لهما، وهزَّ كل منهم رأسه بتحية خفيفة للآخر.**

**تنحنحت وقلت:**

**- لقد تغير الكثير من الأمور الآن.**

**نظر إليَّ (آلان)، سأل:**

**- ما الذي تغيَّر؟**

**أشرت بيدي، وأجبته:**

- لقد أعددنا رحلتنا على ظهور الخيل، ولا أظن أن حالة السير (هنري) تسمح له بذلك.

وجم الجميع باستثناء الكابتن، سأل:

- عن أي رحلة تتحدثون؟

شرح له (آلان) خططنا، وما نعده للعودة إلى جبال الملك سليمان، وانبسطت أسارير الكابتن، قال:

- نعم ما فعلتم، يجب أن ننطلق في أقرب وقت، صحة السير (هنري) تتدهور بسرعة.

قلت:

- لقد أعددنا الرحلة على ظهور الخيل، لا أظن أننا يمكننا القيام بذلك مع حالة السير (هنري).

(صموئيل):

- يجب استخدام عربات الثيران.

(غوريب):

- وهذه أبطأ من الخيول كثيرًا.

آلان:

- ولكننا قد كسبنا شهرًا إضافيًا وبضعة أيام بحضور السير والكابتن الآن، بدلًا من حضورهما بعد شهر من الآن.

هزَّ (غوريب) رأسه في قنوط، قال:

- الثيران بطيئة، بطيئة جدًّا مقارنة بالخيول، كسبتم شهرًا أو أكثر، لن يصنع هذا فارقًا.

انهمكنا جميعًا من جديد في تداول الأمر والعمل على اختصار زمن الرحلة، وكل منا يدلي بدلوه، وقدمت مع الكابتن (جود) أفكارًا جميلة ساعدت في اختصار زمن الرحلة.

وعند الساعة السابعة أحضر الخادم طعام العشاء المكون من أطباق الأرز والأسماك المشوية وقام بترتيبها على المنضدة الصغيرة بيننا، وواصلنا حديثنا ونحن نتناول طعام العشاء، فرغنا من العشاء وتلاه الشاي المثلج.

وعند الساعة التاسعة والنصف غادر (صموئيل) و(غوريب)، بعد أن أخبرونا بحاجتهم لأسبوع لإعداد ما يلزم للرحلة، وقد منحتهم جزءًا من التكاليف ليباشرا التنفيذ، ورغم هذا بقي القنوط لا يفارق وجه (غوريب) و(صموئيل).

بعد انصرافهما انهمكنا نحن الثلاثة في الحديث، وأخبرنا الكابتن عن مفاجأة حضوره مع السير (هنري):

- كنا جلوس في حديقة منزل السير (هنري)، في بداية مرضه وظهور الحُمَّى الليلية، حين فوجئنا برجل يتجاوز باب المنزل والخدم، ليقف أمامنا يصيح بغضب أننا قتلنا الملك وجعلنا مكانه محتالًا، وأنَّ اللعنة والمرض سيطاردان الأربعة ما داموا أحياء، أو نصلح ما أفسدناه، ونُعيد الملك لمُلْكه، حينها قررت مع السير العودة إلى (سيتاندا)، وانطلقنا من فورنا.

سألته:

- ولكننا استلمنا رسالة أُرسلت بالتلغراف أنكما في الطريق، ثم فوجئنا بكما بعدها بيومين على باب البيت.

ابتسم الكابتن، قال:

**- هذا من فطنة السير (هنري)، لقد أرسل لكم رسالة مع قدومنا، وأعطى رئيس الخدم رسالة أخرى تقول:"إننا في الطريق"، وأوصاه في حالة قدوم رسالة منكم، بضرورة إرسال الرسالة عبر التلغراف.**

**ونظر إليَّ الكابتن، قال:**

**- إنَّ السير (هنري) يدين لك باعتذار من محادثتكما السابقة.**

**هززت رأسي ولم أتكلم، في حين قال (آلان):**

**- حالة السير سيئة للغاية، أتظنه قادرًا على القيام بالرحلة معنا؟**

**الكابتن (جود):**

**- إنَّه رجل قوي، ولكن السفر بالسفينة أمرضه جدًّا، بضعة أيام وستتحسن صحته.**

**آلان:**

**- وما أصاب يديه؟ منذ متى؟**

**الكابتن:**

**- منذ عودتنا إلى (لندن)، بدأ تدريجيًّا، حتَّى وصل إلى هذه الحال.**

**سألته:**

**- وأنت؟**

**أجابني بإزاحة ساقه اليسرى جانبًا، وكشف عنها، لم تكن أفضل من ساق (آلان)، الذي كشف عن ساقه بدوره، واستدارت العيون إليَّ في مغزى واضح.**

**ببطء كشفت عن ساقي الأيسر، كنت أفضل حالًا منهما، ولكن علامات التحول واضحة.**

لم ينبس أحدنا ببنت شفة وهو غارق في أفكاره، وتذكرت أمرًا، نظرت إلى الكابتن، قلت:

- البلطة في يد السير (هنري)، هل هي..

لم أكمل سؤالي ولكنه فهمه، أومأ برأسه، قال:

- نعم، هي البلطة التي قطع بها رأس الملك (توالا).

وأجاب السؤال الذي طلَّ من عينيَّ وعيني (آلان)، أردف:

- لقد أحضرها معه ليقطع بها رأس الآخر.

صمت هُنيهة، وأكمل بصوت خافت:

- رأس (اجنوسى).

* * *

# 07- الطريق إلى جبال الملك سليمان

**"من يجرؤ على قطع هذا الطريق، إما أن يخرج منه بثروة أو لا يخرج أبدًا."**

**فريدريك سيلوس، مستكشف روديسيا (1883)**

*  *  *

**الأوَّل من ديسمبر عام 1884..**

**اصطف طابور طويل من عشرين عربة تجرها الثيران، وفي المقدمة عربة تجرها الخيول في شارع (ويست ستريت)، وبضعة خيول عليها راكبيها، وفي الجانب الآخر من الطريق، بجوار عربة خيول أخرى تحمل السير (هنري)، كنا وقوف ومعنا طبيب السير (هنري)، وكل منا يحمل بندقية مارتيني-هنري[1] ذات الطلقة الواحدة، بعد أن وضعنا متاعنا في العربة المخصصة لنا.**

**هذا هو الصباح الأخير لنا في (دربان)، قبل الانطلاق في رحلتنا، وضباب خفيف يحيط بنا، وشاهدت (صموئيل) و(غوريب) وهما يقومان بالإشراف على القافلة والتحقق من كل شيء، قبل أنْ يتقدم إلينا (صموئيل) مع حمالَين من الزولو، وبإرشاد من الطبيب وتحت أنظارنا حملوا المِحفة وعليها السير (هنري) إلى عربة ثيران في وسط القافلة، حيث وُضع في فراش مخصص له، وخُصص الجزء المقابل من العربة ليكون مقعدًا وفراشًا لطبيبه، وحرصنا**

---

[1] بندقية مارتيني-هنري هي بندقية بطلقة واحدة ومداها الفعال يقارب أربعمائة ياردة، وكانت السلاح الأساسي للجيش البريطاني والمستوطنين في جنوب إفريقية في زمن القصة 1884-1885م.

على راحتهما قبل أن نغادر، والتفتنا لصوت ينادي (آلان)، لنجد (غوريب) يسرع إلينا، قال:

- سَيِّد (آلان)، ماذا عن هؤلاء؟

كان يقصد الرجال السبعة الذين أحضرهم السير (هنري) معه، وهؤلاء صيادو ثروات وباحثون عن الكنوز، أغراهم السير (هنري) بالقدوم معه لمؤازرته، مع وعد بالحصول على كنوز من جبال الملك سليمان.

لم يكن هذا غريبًا، فقد كانت إفريقية في ذلك الحين أرض المغامرة والمخاطرة والبحث عن الذهب والكنوز، وكل مغامر وباحث عن الثروات يأتي إليها.

ربت الكابتن (جود) على كتفه، وقال:

- دع أمر هؤلاء لنا، سنحرص على ألّا يزعجونك.

آلان:

- ستكون مهمتهم حراسة القافلة فقط، ولا شيء آخر.

قلت وأنا أعلم بحقيقة الأمور:

- ليكن (صموئيل) حلقة الوصل بينك وبينهم.

نظر إلينا، ثم قال:

- حسنًا.

واستدار يواصل الإشراف على قافلتنا التي هي خليط من المسافرين العاديين والمبشرين والتجار والمغامرين.

الهدف من القافلة الكبيرة هو تقليل مخاطر الرحلة وإرهاب اللصوص والقبائل التي تهاجم القوافل، ومساندة بعضها البعض لاختصار زمن الرحلة، وأكثر

من في القافلة مسلح باستثناء الأهالي الأفارقة، فيُمنع حملهم السلاح حسب تعليمات الجيش البريطاني، وعنّي فأنَّ مساعي ونفوذ السير (هنري) هو ما سمح لي بحمل البندقية جهارًا.

قافلة ليس فيها غيرنا ذاهب إلى (سيتاندا) في روديسيا الشمالية، جميعهم سينزلون في محطات على طريق رحلتنا، في (بينتاون) و(بيترماريتزبرغ) و(ليديسميث) وما بعدها، ولكننا نأمل أن يأتي من يحل محلهم في كل محطة ينزلون فيها.

رن جرس بعيد وتوالت بعده عدة أجراس أخذت أصواتها تقترب منا، وكل سائق عربة وهو جالس على مقعده يضرب الجرس المعلق أعلاه على يمينه، إيذانًا ببدء الانطلاق، حتَّى امتلأ شارع (ويست ستريت) برنين الأجراس.

وهُرعنا جميعًا إلى أماكننا في القافلة، أنا و(آلان) والكابتن (جود) في عربة في الوسط قريبة من عربة السير (هنري)، ولكنني فضلت الجلوس بجوار السائق (غوريب) على مقعد السائق في عربة الثيران الأولى.

نظر إليَّ (غوريب)، قال:

- هذا مقعد خطر يا سيِّد (حسَّان).

نظرت إليه وقلت:

- نحن ذاهبون في رحلة قد لا نعود منها.

هزَّ رأسه في قنوط، وأدار رأسه ليضرب ظهر الثيران بسوط يحمله في يده اليُمنى، لتتحرك القافلة تتبع عربة الخيول، ونبدأ المسير إلى هناك.. إلى الجبال.. جبال الملك سليمان..

* * *

الغريب أنَّ الضباب ازداد كثافة، والعربات تتجه من (وست ستريت) إلى الشمال الغربي من (دربان)، ورنين الأجراس الصغيرة في رقاب الثيران جعل القافلة كمسيرة احتفالية، أما عربة الخيول فقد اختفت أمامنا وفي صحبتها خمسة من الرجال المسلحين على ظهور خيولهم، استأجرهم (غوريب) و(صموئيل) لحراستها.

كانت مهمة عربة الخيل هي استكشاف الطريق، والتخلص من أي عقبات أو مخاطر فيها أو تحذيرنا منها على الأقل، بالإضافة لمهمة أخرى.

وعن سير عربات الثيران فحدث ولا حرج، كانت بطيئة، بطيئة جدًّا، حتَّى أنَّ السائر على قدميه يسبقها، وبحسبة بسيطة وجدت أن سرعتها من أربعة إلى خمسة كيلومتر في الساعة، في حين متوسط سرعة الشخص العادي هو ستة كيلومترات في الساعة.

والشمس -التي بالكاد تظهر من وراء الضباب- ترتفع في السماء، اتخذنا طريق العربات المعروف الذي يمر بـ (بينتاون) إلى (بيترماريتزبرغ) وهو طريق ترابي ضيق بعرض ثلاثة أمتار، وعلى جانبيه غابات الأكاسيا بأزهارها الصفراء الزاهية وأشجار نخيل رافيا، وعلى جانب الطريق كنا نرى أكوام الحجارة، وجماجم الحيوانات المعلقة في الأشجار، بالإضافة إلى العلامات على الأشجار، والتي وُضعت لتُدل العابرين على الطريق الصحيح.

لم يكن الطريق سهلًا، فالأرض موحلة، وبين الحين والآخر يقابلنا مستنقعًا صنعته الأمطار، أو منحدرًا لا يقل عن خمس وعشرين درجة، وساعدت

**العجلات العريضة مع السلاسل الحديدية التي تحيط بها من تقليل الإنزلاق وتذليل هذه العقبات، ومع ذلك احتجنا إلى الثيران المساعدة بين الحين والآخر، والثيران المساعدة هي ثيران بلا عربات، مهمتها المساعدة في سحب أو دفع العربات المتعثرة.**

**لقد اجبرتنا الظروف على القيام بهذه الرحلة في أسوأ فترة من العام، فترة الأمطار الغزيرة التي تبدا من شهر نوفمبر إلى شهر مارس، وترتفع فيها الرطوبة إلى درجات عالية، أما الحرارة فلا تقل عن ثمان وعشرين درجة وقد تصل أكثر من اثنتين وثلاثين درجة مئوية، وتكثر فيها الأمراض، وهي فترة يكره جميع السائقين المحترفين السفر والترحال فيها، رُبَّما المغامرون هم من يقبل القيام بها في هذه الفترة من العام.**

**انشغلت بمشاهدة معالم الطريق، وأشجار المانجو البري والتين البري في ذروة الإثمار على الجانبين، ما نحن فيه شغلنا عن الاستمتاع بما حولنا، وتذوق خيرات الطبيعة التي أغدقها الله على هذه البلاد، وبين الحين والآخر اسأل (غوريب) عن شيء أثار اهتمامي، فلم يكن رفيقي ممن يحبون الحديث، واكتفى بالقيادة في صمت.**

**انتصف النهار وانقشع الضباب، والقافلة تتحرك ببطء ولكن بثبات رغم العقبات، لا أعلم مقدار المسافة التي قطعناها، ولا أظنها تتجاوز العشرة كيلومترات.**

**كنت أرغب في النزول والسير على قدمي، ولكن (غوريب) نهاني عن هذا، وقال: "خطر كبير، هذه الأرض لا يسير فيها إلّا أهلها، الغريب يموت فيها**

**بسرعة، أفعى تحت الصخور أو أسد وراء شجرة أو بين حشائش السافانا أو تمساح عند النهر أوالمستنقعات، نبتة سامة تجرحك"**

**ملابسنا صارت كأنها نُقعت في الماء، ورغم معرفتي بسبيها، فقد وجدت في هذا فرصة للحديث، أخبرت (غوريب)، قال:**

**- الرطوبة، ستقل كلما اتجهنا شمالًا وابتعدنا عن (دربان).**

**ظهرت أول علامة تخبرنا أننا اقتربنا من نصف المسافة بين (دربان) و(بينتاون)، بدأنا نقترب من نهر أومجيني، وأخذت المستنقعات تكثر وتكبر.**

**قرع (غوريب) الجرس على يمينه بنغم مميز، لتتعالى من خلفنا أصوات الأجراس تكرر ذات النغم، ودون أنْ يلتفت إليَّ، قال:**

**- خذ الحذر، وانظر حولك، وأعدد بندقيتك.**

**امسكت بندقيتي وأعددتها للإطلاق، وأنا أسأله:**

**- ماذا هناك؟**

**أجابني بكلمة واحدة:**

**- تماسيح.**

**أثارت كلمته رهبتي، وأكثرت من التفاتي حول نفسي، واندفع ثلاثة من الذين قدموا مع السير (هنري) على خيولهم إلى جوارنا وهم يشهرون بنادقهم، ويسألون عمّا يحدث، أخبرتهم بالأمر، وبجرأة تقدموا القافلة وهم يلتفتون حولهم بحذر شديد.**

**واصلنا السير حتَّى شعرت بنغزة جعلتني التفت إلى (غوريب)، الذي أشار بيده إلى مستنقع كبير قريب، حيث تطفو قطع أخشاب، وأدركت الحقيقة، لم**

تكن أخشابًا بل ظهور التماسيح التي تختفي تحت الماء، فلا يبقى سوى أعينها وجزء من الظهر.

ليست بالشيء السهل، فهذه التماسيح المعروفة بـ (تماسيح النيل) يبلغ طول أقصرها ثلاثة أمتار ونصف المتر ويصل أطولها إلى ستة أمتار، وضربة من ذيلها تكسر عظم الفريسة، الفريسة التي لن يستطيع أحد أن يستعيدها من التمساح الذي يُخفيها في طمى قاع الماء.

مع كل خطوة نقترب من نهر أومجيني، وبعد قليل سنسير بمحاذاته وسيزداد خطرها، فهي تكثر على ضفاف النهر كما في المستنقعات، والمشكلة في قتلها! لن تكفي طلقة واحدة كما تفعل بنادقنا، بل عدة طلقات في الرأس، فهل سنملك الوقت لإعادة حشو بنادقنا بالطلقة التالية؟

مضينا وأصابعنا على الأزْندة والحذر معنا، وبعد قليل ظهرت عربة الخيل التي سبقتنا وهي متوقفة على جانب الطريق في منطقة خالية من المستنقعات والأشجار، وقدور على صخور ونار هامدة، والرجال حولها وتوتر يخيم على المكان.

اقتربنا منهم وجذب (غوريب) اللجام المصنوع من الجلد ومربوط بقرون الثيران لتتوقف، وهو يقرع الجرس بنغمة مميزة وتتكرر ذات النغمة من العربات الأخرى، وتقدم (صموئيل) إلى (غوريب) وتحدث معه بلغة الخويخوي، قبل أن يشير الأخير بيده كأنه يصف موضع عربة ما.

اتجه (صموئيل) إلى العربات خلفنا، والتفت (غوريب) إليَّ يقول:

- لدغة ثعبان، أحد الرجال أصابته لدغة ثعبان، وهم يبحثون عن طبيب له.

سألته:

**- هل سينجو؟**

**نفى بهزٍّ رأسه والقنوط يغمر وجهه، وضرب ظهور الثيران بسوطه وهو يقرع الجرس، ووجدت أحد رجال عربة الخيل يتقدم إلينا، ويعطي كلا منا طبقًا فخاريًا يحتوي لحم البقر الناضج مع الحساء.**

**الغرض الرئيس من عربة الخيل هو إمدادنا بالوجبات دون الحاجة إلى التوقف للاستراحة وتجاوز المحطات على الطريق قدر الإمكان.**

**الثيران قوية ولكن الاستراحة ضرورية لها ولدواب القافلة، وخطتنا هي تعويضها بوجبة دسمة واستراحه طويلة من بعد غروب الشمس إلى قبل شروقها بقليل.**

**تناولنا غداءنا في صمت، تلاه شرب الماء من قربة (غوريب)، وتكاثفت الغيوم في السماء وبدأت العواصف الرعدية لتخبرنا بحلول بعد ظهر اليوم وبدء سقوط الأمطار الغزيرة.**

**ومرت بجوارنا عربة الخيول وتحدث (غوريب) مع (صموئيل) قبل أن يتابع الأخير طريقه، وتختفي قافلة الخيول وراء السيل المنهمر من السماء.**

**- لقد مات.**

**قالها (غوريب)، سمعته بصعوبة بسبب صوت المطر من حولنا وعلى الجلد الذي يغطي العربة، ولم أسأله عمن يقصده، لا شك أنه الرجل الذي لدغه الثعبان أو الأفعى، والتفت إلى خيال في طرف عيني، لأجد أحد رجال السير (هنري) يقود فرسه بصعوبة تحت المطر، صاح يقول إنَّ السير (هنري) يرغب في الحديث معي، وطلب مني الركوب خلفه على حصانه.**

**وثبت من العربة إلى ظهر الفرس، وبندقيتي في يدي، ووضعتها تحت ملابسي كي لا تفسدها الأمطار، واستدار الرجل بفرسه وهو يصارع الأمطار وسار إلى عربة السير (هنري) في منتصف القافلة، وعندها وثبت مرة أخرى إلى عربة السير.**

**نفضت ملابسي المبتلة من الرطوبة والمطر الغزير في هذه الرحلة القصيرة، لأجد الجميع هنا بالإضافة للطبيب، السير (هنري) و(آلان) والكابتن (جود)، السير (هنري) جالس في فراشه واتكأ بظهره على جدار العربة خلفه، وأخفى يديه تحت الغطاء، لقد تحسنت حالته كثيرًا، وجلس طبيبه بجواره، جلست مع الآخرين على المقعد الطويل المقابل، المخصص لنوم الطبيب، بعد أن وضع الطبيب قطعة من الجلد تحول بيني وبين فراشه كي لا يبتل، وأخرج قطعة قماش من صوان صغير تحت المقعد الطويل الذي نجلس عليه، وأشار بيده أن أمسح المطر عن وجهي في كرم غريب عن إنجليزي، لا أعلم ماذا سيفعل بها فيما بعد؟**

**التفت إليَّ السير (هنري)، قال:**

**- والآن، يا سيِّد (حسَّان)، ما خطتك لدخول مملكة (كوكوانا)؟**

**أجبته وأنا أجفف وجهي:**

**- لا نحتاج خطة، سنذهب هناك ونطلب مقابلة (اجنوسى).**

**سأل الكابتن (جود):**

**- ألن يشك أو يسألنا عمّا جاء بنا إلى أرضه مرة أخرى؟**

**أجبته بسرعة:**

**- حتمًا، وسيكون جوابنا هو الطمع.**

**ردد السير (هنري):**

**- الطمع؟**

**قلت:**

**- نعم، الطمع، لقد حققنا ثروة عظيمة مما حصلنا عليه في المرَّة السابقة ونرغب هذه المرَّة في المزيد.**

**سأل الطبيب:**

**- ألن يشك في أمركم؟**

**آلان:**

**- نعم، لن يشك، لقد ساعدناه في الوصول إلى عرش (كوكوانا)، أنه مدين لنا بعرشه.**

**قلت:**

**- لا يهمنا أمره، فما نحتاجه هو بضعة أيام فقط.**

**الكابتن (جود) وهو يعدل العدسة الزجاجية على عينه اليمنى:**

**- بضعة أيام! هل لديك فكرة عمّا سنفعله في تلك الأيام؟**

**وضعت قطعة القماش جانبًا على قطعة الجلد، أجبته:**

**- سنقلب ما فعلناه في المرَّة الأولى.**

**السير (هنري):**

**- كيف؟**

**قلت:**

**- سنبحث عن الوريث الفعلي للملك (توالا) خاصة بعد مقتل ابنه (سكراجا) على يد السير (هنري)، ونحاول الوصول لمن نجا من أعوان الملك (توالا)، ونساعدهم في لم شملهم والقضاء على (اجنوسى).**

**قال (آلان) وهو ينظر إلى السير (هنري):**

**- ولم لا نقتل (اجنوسى) ونفر من المكان؟**

**التفت إليه السير (هنري)، أجابه:**

**- سنبدو كمجرمين قتلوا الملك وفرّوا، سيطاردنا الجميع، ولن نعلم من سيرث العرش بعد (اجنوسى)، رُبَّما عمه (انفادوس) أو أحد اتباعه.**

**الكابتن (جود):**

**- وكما أخبرتما، الساحر والساحرة اشترطا عودة الملك الشرعي لرفع اللعنة عنَّا.**

**طبعًا أخفيت عنهم جميعًا أحد الشروط التي قالها الساحر وهو "ويسير من أرسله إلى أرض الظلام معه في أرض الظلام"، لأنني لا أفهم سوى مغزاه الظاهر، وهو موت السير (هنري) كما مات الملك (توالا)، ولن اخذ هذا التفسير حتَّى أعلم مغزى "ويعود الملك الذي لا يعود"، هل المقصود عودة الملك (توالا) نفسه؟ هذا مُحال، لقد رأيت بأم عيني رأسه المقطوع على ركبتيه في مقبرة ملوك مملكة (كوكوانا)، الجملة نفسها تقول كلماتها "الملك الذي لا يعود"، أم المقصود هو عودة الحكم والعرش لوريث شرعي من ورثة الملك (توالا)؟ هذا هو المسار الذي نسعى فيه، ونأمل منه الحل وزوال اللعنة، ولكن هل هو المسار الصحيح؟**

**الطبيب:**

**- هل تظنون هذا كافي لرفع اللعنة؟**

**رفع الكابتن (جود) كفيه بعجز، قال:**

**- وماذا نملك سوى هذا؟**

**آلان:**

**- هل سيتركنا (اجنوسى) نفعل هذا؟**

**السير (هنري):**

**- رُبَّما يشك فينا ورُبَّما لا، حين نكون هناك علينا أخذ الحيطة والحذر الشديدين.**

**والتفت إليَّ مكملًا:**

**- لا أنكر أنها خطة بسيطة وفعالة يا سيِّد (حسَّان)، فكرت فيها من قبل، وترددت في البوح بها، ومجيئها على لسانك جعلها مناسبة تمامًا.**

**نقل (آلان) نظره (آلان) من السير (هنري) إليَّ، قال:**

**- أتظنونها سهلة؟**

**الكابتن (جود):**

**- ظاهرها سهل، المعضلة الكبرى هي العثور على الوريث الشرعي للملك (توالا)، وجمع من تبقى من أعوانه.**

**آلان:**

**- وهل أعوانه كُثر؟ هل بقي منهم أحد أم تخلص منهم (اجنوسى) جميعًا؟**

**أضفت إلى تساؤلاته:**

**- وهل من بقي منهم يملك القوة لمواجهة (اجنوسى)؟**

حضر خادم من الخويخوي جعله السير (هنري) لخدمته، واستأذن ليشعل مصابيح العربة، لننتبه أنَّ المطر قد توقف، وأوشك الظلام على الحلول.

أذن له السير (هنري) مع دوي أجراس العربات وتبدأ في التوقف، وشاهدنا انعكاسًا لنيران قويّة على العربات، وعلا صوت السائقين يطلب من يرغب في النزول بالنزول، ويحذر من الثعابين تحت الصخور وبين الحشائش.

* * *

# 08- ليلة الضباع

ترجَّلنا جميعًا باستثناء السير (هنري) الذي لا تسمح له حالته، ليستقبلنا منظر فريد في غروب الشمس، منطقة شاسعة، أرضها صخرية خلت من الأشجار والحشائش، باستثناء بعض الأعشاب القصيرة، وعلى حوافها أُشعلت النيران وبين نار وأخرى بضع ياردات[2]، وفي وسطها الخيول وقد فُصلت عنها عربتها، وقدور الطهي على صخور والنار مشتعلة أسفلها، ومن الشرق على مسافة من موضعنا نهر أومجيني ومن ورائه تبدو الغابات الكثيفة في عكارة ضوء النهار، ومن الغرب غابات ورؤوس جبال مسربلة بالسواد لا أعلم هل هي جبال دراكنزبرغ أم لا؟

واخذ المسافرون في التترجل من عرباتهم، ثم أخذ السائقون يقودون عرباتهم داخل حلقة النيران، حتَّى صنعوا بعرباتهم حلقة أخرى داخل حلقة النيران، وفصلوا العربات عن الثيران وقادوها إلى جدول ماء لم تكن العين تراه يقطع الحلقة من الطرف للآخر، ورغم اتساع الدائرة فإنّ الثيران والدواب الأخرى شغلت أكثر من ثلثي مساحتها، كل عربة يجرها ستة ثيران وقافلتنا تتكون من عشرين عربة، نحن نتحدث عن مائة وعشرين ثورًا، بالإضافة إلى ثلاثة وعشرين ثورًا مخصصة لعمليات السحب، بالإضافة للدواب المخصصة للطعام.

وقام الحمالون بإشعال مصابيح الزيت في أماكنها المخصصة من عربات الثيران، بالإضافة إلى عدة مشاعل قوية في وسط المعسكر بالقرب من عربة الخيل، وتجمَّع المسافرون في حلقات يجمعها العِرق غالبًا أو المهنة.

---

[2] الياردة تساوي تقريبًا تسعة أعشار المتر الواحد، 1 ياردة = 0.91 متر.

الإنجليز والبرتغاليون يمثلون الأوروبيين في حلقاتهم الخاصة، وتميزهم بمقاعدهم القابلة للطي، وحراس القافلة وجدوا في مقعد السائق في العربات مكانًا لهم، وأصحاب الأرض من القبائل الإفريقية في دوائر على الأرض أو جلود الحيوانات أو على متاعهم، والهنود في حلقاتهم، ثم جاء السائقون بعد أن أتموا سقاية الثيران وإطعامها وصنعوا حلقة واسعة واتكأوا على متاع لهم، والطهاة عند القدور، والحقيقة أنَّ مشهد الطهاة وهم يعدون الطعام يوحي بأنَّ رحلتنا ترفيهية وليست مصيرية، ولا أفضح سرًّا حين أقول أنَّ هذه الرحلة كلفتنا خمسة أضعاف تكلفتها التقليدية، لضمان سرعة سير القافلة وزيادة الرفاهية وتقليل شظفها ومخاطرها، دفع السير (هنري) معظمها، من ثمن الماس الذي باعه في (لندن)، الماس الذي حصلنا عليه من جبال الملك سليمان، رغم هذا لم يخل اليوم الأوَّل من الضحية الأولى.

رغم علاقتي بالسير (هنري) و(آلان) والكابتن (جود)، كنت أشعر بغربة شديدة، والحق أننا جميعًا غرباء باستثناء الأهالي، واختلف بكوني العربي والمسلم الوحيد فيهم، والهنود هنا يكثر فيهم المسلمون كما الهندوس، ولكن قافلتنا خلت من الهنود المسلمين، ولا يخفى على أحد محاولة الأوربيين عمومًا والإنجليز خصوصًا دق الأسفين بين العرب والأفارقة، وإظهارنا متغطرسين وتجارًا للعبيد، ولكن التصرفات الاستعمارية البغيضة اليومية لم يجعل لهذه المحاولة نصيبًا من النجاح.

حملت معي الماء من الجدول في إناء نحاسي وذهبت لقضاء حاجتي خارج دائرة النيران وقريبًا منها، بعد أن حرصت على تفحص المكان بدقة في ضوء النيران، وقرع الجرس الصغير الذي أحمله لإفزاع ما لا تدركه عيناي، لم

**أخش الحيوانات المفترسة المُنتشرة في الغابات والأدغال الإفريقية، فالنار تساعد في إرهابها وإبعادها.**

**كان التبول حول المعسكر عادة يقوم بها المسافرون لطرد الذباب، ولكنني فعلتها لحاجتي إليها فقط، عدت للجدول لأملأ الإناء مرة أخرى وأتوضأ بجوار الجدول، ثم قمت بإخراج قطعة قماش من متاعي في عربتنا وقمت بإداء صلاة الظهر والعصر والمغرب معًا، مسترشدًا بموضع غروب الشمس في تحديد موضع القبلة التقريبي.**

**في تلك الأثناء تعاون الطبيب وحمالان من الأفارقة مع خادم السير (هنري) على إنزال الأخير من عربته إلى مقعد قابل للطي بالقرب منها، مع الحرص على إخفاء يديه، وأحضرنا مقاعد لنا من عربتنا وجلسنا حوله، وأخذنا الحديث ومرَّ بنا (صموئيل) ينصحنا بالحذر من الحشرات والأفعاعي والثعابين، قال:**

**- لقد حرصنا على اختيار المكان المناسب وتنظيفه، ولكن الأمر لا يخلو أن يختبئ شيء هنا أو هناك.**

**بعد قليل شرع الطهاة في توزيع الطعام المكون من يخنة اللحم وعصيدة الذرة، لم يكن مذاق الطعام يلائمني، في العادة كل ثقافة لها طعامها وشرابها الخاص، فهذا الطعام مع الشاي أو القهوة من عادات الإنجليز، والأفارقة يفضلون تناول صيد الطرائد واللحم المجفف وجذور الكاسافا المنقوعة وشراب الأعشاب في أوعية فخارية، والهنود لهم طعامهم ويكثرون من إضافة البهارات الخاصة بهم.**

**الحرص على سرعة السير وعدم التوقف في المحطات المعتادة، أجبر رحلتنا على الحد من هذا التنوع وحصره في الطبخ الإنجليزي، وحمل أغلب المسافرين ما يناسبهم من الطعام في متاعهم.**

**أضاف ضوء المصابيح والمشاعل إلى معسكرنا شاعرية جميلة، وجاء خادم السير بكؤوس الشراب الذي رفضت تناوله، ثم غادرتهم إلى حلقة السائقين، لأجد أكثرهم لقد ذهب للنوم، ولم يبق منهم سوى (غوريب) و(صموئيل) وثلاثة آخرين، أخذت مجلسي بينهم، وسألت (صموئيل) عن سير رحلتنا، أجابني:**

**- نتقدم بسرعة كبيرة، إذا استمر تقدمنا بهذه السرعة سنصل (بيترماريتزبرغ) غدًا مساءً.**

**قال سائق بإنجليزية جيدة:**

**- لم يحقق أحد هذا من قبل، حتَّى في أفضل أحوال الطريق.**

**غوريب:**

**- إذا واصلنا السير بهذه السرعة مع تجاوز عقبات الطريق، قد نصل بكم إلى وجهتكم في ثلاثة أشهر أو أقل قليلًا.**

**أسعدني كلامه، وتشعب بنا الحديث إلى أمور أخرى، حتَّى نهض (صموئيل)، قال:**

**- سأتفقد المكان والقافلة والحراس ثم أذهب النوم.**

**تحدثت قليلًا مع (غوريب) والسائقين، قبل أن اعود لعربتي، نام السير (هنري) وطبيبه في عربتهما وكذلك (آلان) والكابتن (جود)، وفضلت النوم في العراء تحت ناموسية كوقاية إضافية من لدغات البعوض والذباب وما**

**يجلبان من أمراض الملاريا والنوم، في حالة نسي البعض تجديد نار (الإفيدرا) أو ما نسميه نحن بـ(عنب البحر)، ونار (عنب البحر) هي مشاعل المخيم، تُوضع عليها أغصان نبات (عنب البحر) ملفوفة بالجلد المبلل ويتم استبدالها كل ساعتين، وتعمل على طرد البعوض والذباب أو قتلها، وتُعرف هنا باسم (سومبوي)، في حين يستخدم الزولو أوراقًا نعرفها بـ (الليمونية الجنوب أفريقية) لنفس الغرض، القيام بهذه الرحلات يضيف الكثير من المعارف والخبرات للإنسان، لم أكن أنا فقط من نام في العراء، الأفارقة والسائقون وسواهم يفضلون النوم في العراء حول الثيران التي تجمعت في منتصف دائرة المكان.**

**استيقظت بعد منتصف الليل على أصوات صراخ وإطلاق البنادق وأصوات أجراس تُقرع بعنف، لأجد معسكرنا في فوضى شديدة، والثيران تركض في كل اتجاه تفر من شيء ما، وتدوس بحوافرها كل ما تجده في طريقها من أناس ومتاع، ورنين الأجراس في رقابها يدوي في المكان، ومشاعل وسط المعسكر مع نيران الجهة الشمالية مُطفأة بخلاف باقي النيران.**

**كان فراشي بجانب عربتنا، وهذا ما وقى مكاني من الثيران والدواب المندفعة إلى خارج دائرة المعسكر من خلال الفسحة الفارغة بين العربات.**

**النيران المنعكسة عليها والعيون المتوهجة في الظلام كالمصابيح، جعلتني أدرك أننا نتعرض لهجوم من قطيع من الضباع المرقطة.**

*** * ***

**"عند مواجهة الضباع، لا تركض حتَّى لا تحفز غريزة المطاردة، أصرخ بصوت غير بشري لإرباكها"**

* * *

**انتزعت مسدس ويبلي[3] وأنا استعيد ما أعرفه عن الضباع المرقطة من رحلاتي السابقة، الفوضى التي تعم المكان واختلاط المسافرين والحراس والثيران والضباع والدواب، وضوء مصابيح الزيت الضعيف، جعل عملية التصويب صعبة مع خطر إصابة هدف غير الضباع المرقطة، أحكمت التصويب وأطلقت النار على أقربها، ليسقط أرضًا مضرجًا بدمائه، والتفت في الوقت المناسب لأجد آخرًا ينقضّ عليَّ من جهة اليسار، وطلقة أخرى اسقطته جريحًا، لينضم إليَّ بعدها طبيب السير (هنري) و(آلان) والكابتن (جود) في التصدي للضباع.**

**استغرقت المواجهة قرابة نصف ساعة، شارك فيها الحراس والمسافرون الآخرون، وبدأت موجة الهجوم تنحسر، ونحن نسمع صوت عوائها الذي يشبه الضحكة الماجنة حولنا.**

**بدأنا نحصي الخسائر، بداية بفرار الثيران والدواب جميعها، ومقتل حارس ومسافرين، مرورًا بالجرحى والمتاع.**

**الغضب الذي يعصف بوجه (صموئيل)، دفعني لأهتف:**

**- صموئيل، ماذا هناك؟**

**بغضب قال:**

**- أين السير (هنري)؟**

[3] مسدس ويبلي هو نوعية مشهورة من المسدسات كانت تُستخدم في المستعمرات البريطانية في أواخر القرن التاسع عشر، ويحتوي خمس رصاصات ومداه الفعّال ثلاثون مترًا.

أشرنا إلى العربة التي ينام فيها السير دون أن ننبس ببنت شفة، ليتجاهلنا ويذهب إليها وهو يضرب الأرض بقوة بأقدام غاضبة، ويزيح قطعة الجلد التي تغلق العربة، وينظر داخلها ويصرخ:

- رحماك يا رب السموات.

هُرعنا إليه ونظرنا إلى دخل العربة، لنجد السير (هنري) مضرجًا بالدماء وفي حضنه ضبع صريع، ويد السير العظمية تقبض على خنجر غاص كله في عنق الضبع.

وثبنا وراء الطبيب إلى داخل العربة، وأزحنا جثة الضبع وألقينا بها إلى الخارج، وكشف الطبيب عن صدر السير ليظهر جرح غائر بشع يمتد من كتف السير الأيسر إلى أسفل الجانب الأيمن من صدره، والدماء تتدفق بغزارة منه.

وساعدنا الطبيب على العناية به، ولم نتركه حتَّى قال الكلمة التي أراحتنا:

- سينجو.

هبطت من العربة وتوجهت ابحث عن (صموئيل)، وجدت (غوريب)، وسألته:

- ماذا هناك؟ ماذا حدث؟

أجابني بغضب:

- حرّاس السير الأغبياء، أخبرناهم أن يحرصوا على أن تبقى النار مشتعلة طوال الليل، النار همدت ولم يهتم أحدهم بإشعالها، وحين أخبرهم حارس من رجالنا بضرورة إشعال النار لحماية المعسكر من الضواري، قالوا إنهم لا يأخذون الأوامر من العبيد، وحدثت بينهم مشادة انتهت بضرب الرجل وهجوم الضباع.

**سألته:**

**- أين (صموئيل) الآن؟**

**نظر في الاتجاه الآخر، قال:**

**- أخذ الرجال لينقذ ما يستطيع من الثيران والدواب.**

**نظرت إلى خارج دائرة المعسكر، حيث عادت النيران قوية متوهجة، قلت:**

**- هل سينجح؟**

**- عليه أن ينجح أو نهلك نحن.**

*** * ***

**شاهدت طبيب السير (هنري) يعاونه طبيب آخر علمت أنه مبشر ألماني وهما يطبّبان الجرحى والمصابين، كانت أغلب الجراح والإصابات من الثيران والدواب أثناء فرارها من الضباع، والقليل منها سببه الضباع وإطلاق النار بالخطأ.**

**تركت (غوريب) في شأنه وأمسكت ببندقيتي وتقدمت إلى حدود دائرة المعسكر حيث النيران المشتعلة، وفي الظلام من بعيد تبدو المشاعل التي يحملها الحراس وهم يبحثون عن الثيران، لم نكن لنسمح بفرارها، فرارها يعني هلاكنا، وبلغني رنين الأجراس في أيديهم وأحذيتهم لإخافة الحيوانات المفترسة والحشرات والهوام، لن تكون هناك صعوبة في العثور على الثيران والدواب، الأجراس في رقابها تُخبر عن مكانها، وفي الوقت نفسه تُبعد عنها**

**ما يؤذيها، الخطر العظيم يأتي من البحث عن الثيران والدواب في هذه الأدغال وفي هذا الوقت رغم جميع الاحتياطات.**

**لم انتقل من مكاني وأنا انتظر عودة (صموئيل) والحرّاس، وبعد ساعة عاد الفوج الأوَّل، خمسة حرّاس يقودون أكثر من عشرين ثورًا، وتكرر الأمر حتَّى الفجر، وأخيرًا ظهر (صموئيل) بوجهه المُتعب الغاضب، نظر إليَّ في ضوء مشعله والنيران، ولم يكلمني وهو يسوق مع رجاله قطيع من الثيران والدواب أمامه إلى وسط دائرة المعسكر.**

**تبعته في صمت، وسمعته وهو يصدر التعليمات بالعناية بالثيران، ويسأل عن المصابين وأحوالهم، والقتلى وجثامينهم.**

**انتظرته حتَّى فرغ، سألته:**

**- كم أنقذتم من الثيران؟**

**أجابني دون أن ينظر إليَّ:**

**- جميعها، وأكثر الدواب.**

**انهمك في جمع المتاع المُلقى على الأرض، فاستدرت لأعود إلى عربتي، ناداني:**

**- سيِّد (حسَّان).**

**التفت إليه، لأجده مُقرفصًا ومنهمكًا في ربط حقيبة جلدية، قال دون أن يرفع عينيه إليَّ:**

**- يد السير (هنري)..**

**صمت ورفع رأسه ينظر إليَّ:**

**- ماذا بها؟**

**منحته جوابًا آخرًا:**

**- نبحث عن علاج لها.**

**أومأ برأسه كأنَّ ما قلته وافق أفكاره، واستدرت لأواصل طريقي إلى عربتنا، ليناديني من جديد:**

**- سيِّد (حسَّان)..**

**التفت إليه مرَّة أخرى، لأراه ينهض ويضع الحقيبة على كتفه مع المتاع الأخرى، وينظر في عينيّ، قال:**

**- الضباع، لا تجرؤ على مهاجمة المعسكر.**

**استغربت حديثه، وقلت:**

**- ولكن نيران الجهة الشمالية كانت مطفأة!**

**- هناك نيران في كل مكان، نيران باقي الدائرة، نيران المشاعل، المسافرون كُثر وفي جماعات وليسوا فرادى، الحراس بدورهم أطلقوا النار لإخافتها ولم تفر، الأجراس في رقاب الحيوانات كافية لتُربكها وتطردها.**

**لم أفهم ما يعنيه، سألته:**

**- ماذا تعني؟**

**أجابني وهو يمعن النظر في وجهي:**

**- الضباع لم تكن تهاجم المعسكر..**

**صمت هُنيهة وأكمل بصوت يثير الرهبة:**

**- الضباع كانت تهاجمكم أنتم.. ولا أحد سواكم..**

*** * ***

## 9- طريق الأهوال

**"مثل المشي على حافة سكين بين العالم المعروف والمجهول، النجاح فيها يتطلب تحضيرًا دقيقًا، شجاعة، وقدرًا من الحظ"**

**المستكشف فريدريك كورتني سيلوس**

* * *

**لم أعقَّب على كلماته، واستدرت لأواصل الطريق إلى عربتنا، أخرجت الساعة من جيب سترتي، وعلى ضوء مصباح عربتنا الزيتي، نظرت إليها لأجد أن الوقت الرابعة والنصف، قمت بتعبئتها من جديد وإعادتها إلى جيبي[4]، لقد اقترب موعد صلاة الفجر، ومن حولي المعسكر الذي لم ينم ينهض ليبدأ يومه الجديد، وأُعيد إشعال المشاعل في وسط المعسكر وشرع الطهاة في إعداد الطعام.**

**انهيت صلاة الفجر وأنا استمع إلى (صموئيل) يتحدث بغضب مع (آلان) والكابتن (جود) عمّا حدث، ويطلب تأنيب ومعاقبة الحرّاس الذين أحضرهم السير (هنري) معه، والكابتن (جود) يعده أنه سيؤنبهم ولن يتكرر ما حدث.**

**مرَّة أخرى أخذنا مقاعدنا بجوار عربة السير (هنري)، وبدون حضوره، وانضم إلينا طبيبه، وأكد من جديد أنَّ الجرح كبير وغائر ولكنه سينجو ويتعافى قريبًا.**

**سألته عن القتلى والمصابين، أجابني:**

---

[4] زمن القصة هو عامي 1884-1885م، في ذلك الحين كانت ساعة اليد زينة خاصة بالنساء.

**- سنحمل جثامين القتلى إلى (بيترماريتزبرغ)، سيُدفنون هناك، المصابون أكثرهم إصابات خفيفة نتيجة وقوعهم تحت حوافر الثيران، سيتعافون خلال يومين أو أسبوع على الأكثر، إصابتان فقط تحتاجان عناية ومتابعة، الأولى أُصيبت بطلقة عشوائية، والثاني كسر شديد في الذراع والساق، وسيحتاج إلى استراحة طويلة في محطتنا التالية.**

**الجيد في هذه الأخبار أن قافلتنا ستستمر في التحرك نحو هدفها، وفي الخامسة بدأ الضباب يتكاثف ومعه شرع الطُهاة بمعونة الحمالين في توزيع الإفطار المكون من عصيدة الذرة وقطع اللحم، تناولناها بنهم بعد هذه الليلة العصيبة، تلاها كؤوس من الشاي والنهار يتحسس طريقه رغم الضباب الذي يزداد كثافة، وعند السادسة شرعنا في تفكيك المعسكر، وأُطفأت المصابيح والمشاعل والنيران، ووُضع ما كان من المتاع في خارج العربات في داخلها ورُبطت الثيران بعرباتها، وذهبت لأتخذ مكاني بجوار (غوريب)، وتقدمتنا عربة الخيول وواصلنا المسير نحو الشمال.**

**كثافة الضباب جعلت رؤية الطريق على بُعد عشرين ياردة أمرًا مستحيلًا، بعد ساعة قابلنا جسر (بينتاون) الخشبي، هذا يعني أننا على بعد خمسة عشر ميلًا غربها، ومعضلة هذا الجسر كثرة انهياراته في موسم الأمطار، ولكن القافلة تجاوزته بسلام وهي تستمع لأنينه، وبلغنا بلدة (كلوف) في أول الممر الذي يحمل اسمها، وهو طريق ضيق عبارة عن وادي عميق صاعد كثير التعرج بين تلال بازلتية مغطاة بالكثير من الغابات الكثيفة، وتبلغ زاوية الصعود أربعين درجة، ورغم استخدامنا ستة ثيران لكل عربة بدلًا من أربعة كما هو مألوف، واجهت الثيران صعوبة في الارتقاء، وذكر (غوريب) أمر**

الاستعانة بالثيران المساعدة، واقترحت تجاهل هذا الأمر طالما حافظت الثيران على سرعة ثابتة في السير وإن كانت أبطأ من المعتاد، وتعليلي لذلك أن الاستعانة بالثيران المساعدة سيستغرق وقتًا ومشقة في هذا الضباب لإيقاف القافلة وإضافة ثور لكل عربة، والوقت المُهدر رُبَّما يكون هو ذات الوقت الإضافي الذي تحتاجه القافلة لعبور هذا الوادي، ووافق رأيي هواه، فواصلنا المسير والضباب تخف حدته بشكل كبير.

بعد ساعتين من الصعود البطيء المتعرج، وجدنا عربة الخيول متوقفة وقد أحاط بها مقاتلي الزولو من قبيلة (أمابيلي) بسيماهم المميزة، فطول أقصرهم يبلغ مترًا وثمانين سنتيمترًا، مع ندوب هلالية الشكل على الوجه والصدر ودماء داكنة على أجسادهم، في الحقيقة هي مزيج من دهن الحيوانات وأكسيد الحديد، ويحملون رماحًا بروؤس حديدية مثلثة.

لم يكن هؤلاء المقاتلين عقبة كبيرة في الطريق، فهم عادة يفرضون ضريبة عبور مقدارها شلن لكل عربة، والمعضلة الحقيقية هي عصابة الخناجر الحمراء.

قلت لـ (غوريب):

- ولكن هؤلاء يهاجمون قوافل الممر بين العصر والغسق!

قال وهو ينظر إلى (صموئيل) وهو يتقدم في اتجاهنا برفقة بعض المقاتلين:

- في وقت الأمطار تقلُّ القوافل المارة، والجيش البريطاني أخذ يُسيّر دوريات يومية من الساعة الرابعة عصرًا، لذلك لا استبعد أنهم غيّروا مواعيد غاراتهم.

بلغنا (صموئيل) وتحدث مع (غوريب) عن رغبته في حماية المقاتلين للقافلة إلى أن نصل (بيترماريتزبرغ)، وتم دفع ثلاثة شلنات لكل عربة مع بعض الملح والسكاكين القوية.

وواصلت القافلة مسيرها في حماية المقاتلين، وواجهنا انهيارًا صخريًا في الممر نتيجة الأمطار، واحتجنا ساعة كاملة كي نعيد فتح الطريق، حتَّى وصلنا النقطة التي يقاطع عندها الممر طريق النهر.

كان النهر يفصل بين منظرين، التلال البازلتية بغاباتها في الضفة الغربية، جهتنا، ومنحدرات طينيك سهلة الصعود في الشرق، هذه المنحدرات بداية هضبة (ميدلاندز).

كان منسوب الماء مرتفعًا في النهر والتيار قويًا، وبدا (غوريب) سعيدًا رغم هذا، برر ذلك:

- في هذا الوقت لا يوجد ازدحام، لن يكون هناك تأخير ولا نزاعات مع الآخرين حول أولوية العبور واستخدام العبَّارة.

ولكن سعادته لم تطل، العبَّارة التي تأخذ شلن واحد لكل عربة، لا تتسع لعربة بستة ثيران، بل أربعة ثيران فقط.

اضطررنا إلى إزالة ثورين من كل عربة، وبعد نقلها للضفة الأخرى تمت إعادتها، هذه العملية استغرقت وقتًا طويلًا، وأعادت القنوط لوجه (غوريب).

لم يختلف اليوم كثيرًا عن الأمس، وفي المساء اخبرتنا مزارع قصب السكر أننا اقتربنا من (بيترماريتزبرغ) وعاد مقاتلي (أمابيلي).

**لم نتوقف في البلدة وواصلنا المسير بعد أن انفصلت عدة عربات تحمل جثامين القتلى والمصابين ومسافرين إلى البلدة بصحبة المُبشر الألماني و(صموئيل).**

**تجاوزنا البلدة وقمنا بإنشاء صورة أخرى من معسكر الأمس، وسألني (غوريب):**

**- أسعيد أنت؟**

**نظرت إليه مستغربًا السؤال ووقته، ورددت السؤال بآخر:**

**- ولم لست كذلك؟**

**أجابني:**

**- لقد قطعنا هذه المسافة من (دربان) في يومين، وفي أفضل الأحوال تحتاج إلى ثلاثة أيام.**

**كان من الممكن أن أكون سعيدًا، لولا أنَّ هذه المسافة تبلغ جزءًا من عشرين جزءًا من رحلتنا، لقد قطعنا ستين ميلًا[5] من طريق يبلغ ألفًا ومائتين وخمسين ميلًا تقريبًا.**

**مضت الليلة بلا حوادث، وعواء الضباع المرقطة الشبيه بالضحكة الماجنة حول المعسكر لا يتوقف.**

**في الصباح عادت العربات ومعهما المُبشر الألماني و(صموئيل) ومسافرون آخرون، وهذا هو الأمر الجيد، إنَّ حرصنا على أن تكون قافلتنا كبيرة ليس أمرًا عبثيًا، القوافل الكبيرة تقلل مخاطر الطريق، وتُجبر القبائل واللصوص**

---

[5] الميل يساوي 1.6 كيلومتر تقريبًا.

**وقطاع الطرق على تجنبنا أو التفاوض معنا للحصول على بعض الأشياء مقابل العبور بأمان.**

**تابعت قافلتنا مسيرها إلى وجهتها التالية وهي بلدة (ليديسميث)، في سهول مفتوحة واسعة تُعرف بوادي (توجيلا)، وفيها تلال من الصخور البازلتية، ونحن نمر بأكواخ الزولو الدائرية ومراعيهم، وبدأت قمم جبال دراكنزبرغ تظهر من بعيد ونحن نقترب منها رويدًا رويدًا.**

**الأحداث المهمة في طريقنا هي تسمم السير (هنري)، واستطاع طبيبه إنقاذه، ولم نعرف كيف حدث هذا؟ وبعد تجاوز بلدة (إستكورت) تعرضنا في المساء وقبل غروب الشمس لهجوم عنيف من فرسان (الهوتنتوت)، وهم خليط نشأ من تزاوج الخويخوي والبوير، ويركبون خيول صغيرة من سلالة (Basuto Pony) المقاومة للأمراض، ومعهم بنادق قديمة.**

**كان عدد المهاجمين قرابة أربعين فارسًا، اشتبكنا معهم وأجبرناهم على الفرار وأعادوا الكرَّة مرتين قبل الانسحاب بلا رجعة، لم يمض الأمر بلا خسائر، فقدنا مسافرًا وأُصيب أخر، وطلبنا حماية قبيلة من الزولو ودفعنا الضريبة المُعتادة من الشلنات والملح والسكاكين.**

*** 

**استيقظت على يد تهزني، لأجد (آلان)، سألته:**

**- ماذا هناك؟**

أشار بيده لأنهض من فراشي داخل العربة، وانزل منها لأجد الكابتن (جود) و(صموئيل) بجوارها، تقدمنا (صموئيل) ونحن خلفه إلى دائرة نيران المعسكر، وجدتهم قد أوصلوا النيران ببعضها بخيط رفيع من النار، أشار (صموئيل) إلى وراء النيران، قال:

- هناك.

نظرنا إلى حيث أشار، ولم نستطع رؤية ما يشير إليه في الظلام رغم ضوء النيران، ولكن بعد تدقيق، ارتفعت صيحة الكابتن (جود):

- رحماك يا رب السماء.

أدركت أبصارنا بساط غليظ من النمل يقف وراء النيران التي تحول بينه وبين دخول المعسكر، بساط يمتد حول المعسكر ويحيط به إحاطة السوار بالمعصم، هتفت:

- من أين جاء؟

أجابني (صموئيل):

- هذه منطقته.

الكابتن (جود):

- ولم يهاجم معسكرنا؟

نظر إليه (صموئيل)، أجاب:

- أنتم أعلم بهذا مني، لقد قطعنا هذا الطريق عشرات المرات عبر السنين ولم نقابل هذا مرّة واحدة من قبل.

نظر بعضنا إلى بعض، وانتقلت انظارنا إلى جحافل النمل التي تحاول أن تجد لها ثغرة عبر النيران.

**قال (صموئيل) وهو ينظر إلينا:**

**- هل هنا أمر ترغبون في إخباري به؟**

**أجبته بصدق:**

**- لا نملك إلَّا الظن، لو علمنا الحقيقة لأخبرناك.**

**هزَّ رأسه، وانحنى ليمسك قطعة جمر وألقاها على النمل الذي أفسح لها ولم يتراجع، تنهد (صموئيل) ونظر إلينا وقفل عائدًا.**

**لبثنا برهة نراقب النمل قبل أن نعود عربتنا، كان البرد هو سبب النوم في العربة، فالاختلاف بين درجة حرارة النهار والليل في وادي (توجيلا) يصل إلى خمس عشرة درجة.**

**قبل الفجر وجد النمل له ثغرة وزحف داخل المعسكر، ولكن يقظة الحارس أفشلت هجومه، وسارع الحراس لإغلاق الثغرة بالنيران، وإحراق طابور النمل الذي يسير إلى عربتنا.**

**في الصباح استخدمنا النيران مع إحدى الوصفات الخاصة بقوم (غوريب) لطرد جحافل النمل ومواصلة طريقنا.**

**بعد ثلاثة أيام من مغادرتنا (بيترماريتزبرغ) وصلنا بلدة (ليديسميث) المُقامة في وادي ضيق عند جبال (دراكنزبرغ)، وهناك نزل مسافرون والتحق بنا آخرون، وتزودنا بماء الشرب وبعض المؤن.**

**كانت بلدة (ليديسميث) آخر مناطق سيطرة الجيش البريطاني في شمال إقليم الناتال، وبعدها تبدأ أراضي البوير، وهم من أصول هولندية في الغالب مع البعض من أصول ألمانية وأخرى فرنسية، والعداء والحرب بينهم**

**البريطانيين يستعران بينهما، آخرها الحرب التي انتصروا فيها على الإنجليز قبل أربع سنوات.**

* * *

## 10- سيتاندا

**الرابع من مارس عام 1885..**

**بعد ثلاثة أشهر وبضعة أيام بلغنا قرية (سيتاندا) في روديسيا الشمالية، ولا أصف رحلتنا إليها سوى بمزيج من التحالفات مع القبائل والتصدي لهجمات اللصوص وقطاع الطرق وعبور الجسور والمناطق الخطرة.**

**بعد مغادرتنا بلدة (ليديسميث) قابلنا كوماندوز البوير بلحاهم الحمراء وقبعاتهم المصنوعة من جلد الظباء، ونظرات الشك إلى كل ما هو إنجليزي أو يتعامل معهم، وتجاوزناهم بعد التدقيق في وثائق سفرنا والتفتيش ودفع ضريبة العبور عشرة شلنات لكل عربة.**

**ثم اتخذنا طريق البريد بأعمدته الحجرية كل خمسة أميال ولوحاته البريدية الزرقاء، وتزودنا بالمؤن من القرى البويرية، ولم يرحب بعضها بنا، والبعض لم يقبل العملة البريطانية وأصرَّ على التعامل بالعملات الفضية.**

**تعرضنا لهجمات اللصوص بالقرب من (نيوكاستل)، وهاجمتنا الأسود نهارًا بالقرب من (فولكسروست)، وفيها استبدلنا الخيول والثيران بأخرى نشيطة ومقاومة للأمراض كالتي حملتنا إليها، وقد كلفنا هذا مالًا ووقتًا، وعند نهر (فال) هاجمنا قطاع الطرق.**

**وعبرنا ممر (ريترز) بين بلدتي (ستاندرتون) و(هايديبرغ)، وهو ممر خطر يبلغ طوله أكثر من ثلاثة أميال، ويصعد بزاوية تصل إلى خمس وأربعين درجة، مع رياح قوية واحتجنا الثيران المساعدة، وأضفنا ثور لكل عربة، واقترحت إضافة الأخشاب وجذوع الإشجار كمكابح بطريقة أكثر عملية من الطريقة المعروفة، بحيث تجرها العربات خلفها، وفي حالة إنفلات العربة**

وإنزلاقها تصبح كالأوتاد تنغرس في الطريق وتمنع إنزلاق العربة، وأنقذت هذه الفكرة خمسة عربات من الإنزلاق، كادت تؤدي لكارثة عظيمة تذهب بأغلب القافلة، ورغم هذا ووجود نقاط إنقاذ كل قرابة خمسمائة ياردة، استغرق عبور الممر ثماني ساعات.

وبلغنا (بريتوريا) بخسائر مقدارها ثلاثة قتلى منهم حارس وثلاثة عشر مصابًا، وعدة عربات تحتاج إصلاح.

في (بريتوريا) أصلحنا العربات المعطلة، وانخفضت قافلتنا إلى ثلاث عشرة عربة، وحاولنا قدر استطاعتنا حتَّى ارتفعت إلى ست عشرة عربة، قبل مواصلة المسير عبر (بوشفيلد) المليئة بأشجار السنط الشائكة.

ولاحظت اختفاء العلامات التي تدل على الطريق مثل أكوام الحجارة ورؤوس الحيوانات المعلقة على الأشجار والعلامات على الأشجار، أخبرت (غوريب) بهذا، فقال إنهم يسلكون طريقًا مختصرًا.

عند نهر (ليمبوبو) في أقصى نقطة حدودية لإقليم الترنسفال في الشمال أحرقنا كميات وفيرة من نبات (عنب البحر)، لإبعاد ذبابة (تسي تسي) التي تكثر حول النهر، وخضنا معركة شرسة مع التماسيح عند النهر، معركة جعلت (غوريب) يقول:

- هذا شيء لم أره في حياتي، كأنها جُنّت.

أما (صموئيل) فقال وهو ينظر إلينا:

- في هذه الرحلة لا يتصرف شيء كما عهدناه.

**عبرنا نهر (ليمبوبو) إلى محمية (بيتشوانالاند)، واجهتنا مشكلة أشجار الباوباب العملاقة التي تعيق الطريق وتجبرنا على الالتفاف حولها، إلى أن وصلنا (تولي بلاك)، ومنها انتقلنا إلى أراضي روديسيا الجنوبية.**

**بلغنا (بولاوايو) بالقرب من عاصمة (النديبيلي)، وعقدنا اتفاقية مع ملك قبيلة (النديبيلي) تسمح لنا بالمرور في أراضيهم، والحصول على مرشدين حتى نهر (زامبيزي) في الشمال، وكلفنا هذا كمية من الملح والخرز الأزرق ومرآة كبيرة جميلة.**

**واتجهنا إلى الشمال حتَّى نهر (زامبيزي)، حيث عاد مرشدو قبيلة (النديبيلي)، لنعقد اتفاقية مع قبيلة أخرى لعبور أراضيهم ونهر (زامبيزي) مقابل سكاكين وخرز من الزجاج، وبعبور النهر أصبحنا في أراضي (روديسيا الشمالية) حيث توجد قرية (سيتاندا).**

**أخيرًا، بعد ثلاثة أشهرٍ وأربعة أيام من بدء رحلتنا من (دربان) على شاطئ المحيط الهندي في إقليم الناتال، دخلنا قرية (سيتاندا)[6] مساءً، بسبع عربات ثيران ومعها عربة الخيول، وخمسة حراس على خيولهم من حراس السير (هنري) وطبيبه وخادمه، وسبعة حراس من الزولو وأربعة حمالين من الخويخوي والزولو وثلاثة طهاة بالإضافة إلينا نحن و(غوريب) و(صموئيل)، الأمر الجيِّد الذي يستحق الذكر هو استعادة السير (هنري) عافيته تمامًا باستثناء أمر اليدين.**

---

6 مسار الرحلة من دربان في إقليم الناتال إلى قرية سيتاندا في روديسيا الشمالية هو مسار تاريخي معروف كانت تسلكه القوافل في زمن القصة ويستغرق المرور به في أفضل الظروف ثلاثة أشهر أو أربعة، وكل ما ورد عن هذا المسار هو معلومات حقيقية، حيث يعتبر مروره مغامرة ومجازفة خطيرة، وقد يلاحظ القارئ الاختصار الشديد لأحداث هذا الجزء من القصة، لأنَّ التفاصيل الكاملة لأحداث هذا الطريق قد تحتاج قرابة خمسمائة صفحة، وتعتبر قرية سيتاندا في أقصى العالم المعروف ذلك الحين وبعدها يبدأ العالم المجهول من إفريقية.

**الإعداد الجيد لهذه الرحلة وخبرة (صموئيل) و(غوريب)، جعل خسائرنا أقل ما يمكن، بل أقل من خسائر أي رحلة على هذا الطريق في أفضل الظروف، ولم نسجل حالة ملاريا واحدة أو أعراض مرض النوم في قافلتنا، بلوغنا وجهتنا في هذه الفترة من العام في ثلاثة أشهر وأربعة أيام لهو أمر يثير العجب والدهشة، لقد استحق (صموئيل) و(غوريب) كل بنس دُفع لهما.**

** **

**وقفنا جميعًا أنا والسير (هنري) وطبيبه، و(آلان) والكابتن (جود) في الصباح الباكر خارج دائرة معسكرنا ننظر إلى قرية (سيتاندا)[7]، لم تتغير كثيرًا عن آخر مرَّة رأيناها فيها، في الشرق أكواخ الأهالي الدائرية وحظائر الماشية بأسوارها الحجرية، ومزارع الحبوب وخلفها تمتد سهول عشبية زادت خضرتها في هذا الوقت من العام، وفي الغرب تمتد الصحراء بلا نهاية، ومن خلفها بدت رؤوس جبال الملك سليمان بزرقتها الباهتة، ومعسكرنا بالقرب من المنحدر العميق الذي يشرف على الصحراء.**

**والجدول الصغير يجري أمام معسكرنا من الشمال إلى الجنوب الشرقي، لم يختلف موضع معسكرنا الحالي عن موضع معسكرنا السابق سوى عشرات الياردات.**

---

[7] قرية سيتاندا كانت موجودة ومعروفة في زمن القصة، وكما أسلفت تقع في أقصى العالم المعروف ذلك الحين وبعدها يبدأ العالم المجهول من إفريقية، حاليًا لم يعد لها وجود، وهنا تنتهي جميع الأماكن الحقيقية من القصة، وجميع الأماكن التي يتم ذكرها بعد هذه القرية كالصحراء وجبال الملك سليمان وجبلي (صدر شيبا) ومملكة (كوكوانا) هي من وحي خيال السير هنري رايدر هاجارد مؤلف "كنوز الملك سليمان" التي تقوم عليها هذه القصة.

اتفقنا على العودة إلى جبال الملك سليمان من ذات الطريق التي رجعنا منها، وهي مسيرة ثلاثة أيام وتنتهي بغابة خضراء.

تزودنا بالماء وبعض الطعام من القرية، وفككنا معسكرنا وتحركت القافلة، لم نتوقف للغداء وأكتفينا بتناول اللحم المجفف والماء، وبلغنا الغابة عصرًا، وسرنا حتَّى وصلنا الكوخ الصغير الذي مكث فيه (جورج) أخ السير (هنري) عامين مع مرافقه (جيم) الصياد، وفي الغابة حصلنا على صيد وفير، ووجدنا مصدرًا للماء الصالح للشرب، فأسقينا الثيران والخيول حتَّى أرتوت، وقمنا بتعويض كل ما نقص من الماء، واختلفنا في هل نقضي الليلة هنا أم نكمل الطريق ونقضيها في الصحراء؟ واستقر رأينا على قضاء الليلة هنا، وقام خادم السير (هنري) بإعداد الكوخ لسيده والطبيب، وأنْ يقضي الآخرون ليلتهم في عرباتهم.

تركنا الباقون يعدون معسكرنا، وذهبت مع السير (هنري) نتريَّض حول المعسكر وأنا أحمل بندقيتي، سرنا حتَّى حدود الغابة المطلة على الصحراء المؤدية إلى جبال الملك سليمان، ونظرنا إليها وهي تطل علينا بقممها الشاحبة ومن ورائها شمس الأصيل.

- أرجو أن تقبل اعتذاري.

خرجت ضعيفة واهنة من السير (هنري) وهو ينظر إلى القمم البعيدة، التفت إليه لأسأله عمَّا يقصده، وأكمل هو دون أن يلتفت إليَّ:

- لقد رأيت أنت الحقيقة، وأدركت خداع (اجنوسى)، وأنا رفضت الاستماع إليك، بل نهرتك ومنعتك من قولها للآخرين.

عدت انظر للقمم البعيدة، قلت:

**- لا حاجة للاعتذار، لقد خُدعنا جميعًا، لو كان ما لدي يبلغ اليقين لصددتك ومنعت الآخرين، ولكن كل ما لدي كان ظنًّا وشكًا لا يصلان إلى درجة اليقين.**

**خيّم الصمت علينا إلى أن قطعه السير (هنري):**

**- أنت تعلم أنني لن أعود معكم.**

**التفت إليه مدهوشًا، سألته:**

**- ماذا تعني، هل ستبقى في مملكة (كوكوانا)؟**

**أثارت إجابته الرجفة في أوصالي وهو يقول:**

**- ويعود الملك الذي لا يعود، ويسير من أرسله إلى أرض الظلام إلى أرض الظلام.**

*** * ***

**- تُقتل الأفعى، ويعود الملك الذي لا يعود، ويسير من أرسله إلى أرض الظلام إلى أرض الظلام، مضى خمسة أقمار وبقي خمسة أقمار، بعدها تُحصى العظام، وتسعون لأرض الظلام وتبقون في أرض النور.**

**الساحر في قرية الزولو خارج (دربان)**

*** * ***

**في السادسة صباحًا تحركت قافلتنا مغادرة الغابة إلى عمق الصحراء متخذة قمم جبال الملك سليمان دليلًا لها، وجلست بجوار (غوريب)، وقد نشأت بيننا**

صداقة فريدة، عمادها الصمت، والحديث عند الرأي والمشورة فقط، وما سوى ذلك تفاهم وأفعال بلا كلام.

وأُستغرقت في أفكاري وأنا استعيد ما قيل بالأمس بيني وبين السير (هنري).

* * *

لم استطع تمالك نفسي، التفت إليه والدهشة تعصف بي، سألته:

- كيف علمت بهذا؟

هزَّ السير (هنري) رأسه، أجابني بحزن:

- حين أصاب يدي ما أصابها، سعيت بكل جهدي لعلاجها، لم أجد طبيبًا يستطيع أن يفسر ما أصابني، لجأت للكنيسة، لم أجد عندها جوابًا، وتضرعت إلى الله أن يشفيني مما أصابني، بعدها صرت أرى كل ليلة كابوس (غاغول) وهي تقول "أنا أخدم الملوك ثم يخدمني الملوك"، ثم يتبعه كابوس آخر لرجل واقف في الظلمة ويقول "تضع مَن رفعته، وترفع من وضعته،، ويعود الملك الذي لا يعود، ويسير من أرسله إلى أرض الظلام إلى أرض الظلام، مضت خمسة أقمار وبقي خمسة أقمار، بعدها تُحصى العظام، وتسعون لأرض الظلام وتبقون في أرض النور"، ثم جاء قسيس من الكنيسة يخبرني عن أثم عظيم فعلته، وعن أرض محرمة لا يتصرّف في شؤونها إلَّا من يحمل كتاب الملك سليمان، وأنني قتلت ملكًا وجلبت منبوذًا ليصير ملكًا، ما أصابني ليس سحرًا بل لعنة من رب السماء، لعنة لا تزول حتَّى أصلح ما أفسدته يداي، ثم جاء دور الرجل الذي اقتحم منزلي أثناء جلوسي مع الكابتن (جود)، ليصرخ

**بما فعلناه، لم يعد هنا مجال للتردد وعزمنا على العودة إلى جبال الملك سليمان من حينها دون تأخير.**

**بصعوبة أدرت وجهي المدهوش عنه إلى القمم البعيدة، وبعد هُنيهة سألته:**

**- من (سليمان) هذا الذي سُميت الجبال باسمه؟ هل هو النبي (سليمان) عليه السلام؟ أم شخص آخر؟**

**أجابني:**

**- سألت القسيس ذات السؤال، وأجابني أنه لا يعلم على وجه اليقين، ولكنه حتمًا رجل بلغ مرتبة من الإيمان فأكرمه الله بأن خصَّ هذا المكان وقومه بأمورٍ لا تكون في سواه، وقال أن ما أخبرني به رؤيا جاءته في المنام، في ظروف لا تحتمل الشك أو التأويل، وهذا ما جعله يُهرِع إليَّ.**

**لم اقتنع بهذا التفسير، عقائد قبيلة (كوكوانا) تماثل عقائد الزولو، وهي تختلف عن الأديان السماوية، حتمًا هناك تفسير آخر يخص هذه الأرض، رُبَّما ورثت قبيلة (كوكوانا) هذه الأرض بأسرارها عن (سليمان) وقومه، مَن هو سليمان؟ وماذا حلَّ به وبقومه؟ أين ذهبوا؟ ما مصيرهم؟**

**بصوت خافت، قلت في أسف:**

**- يا إلهي، ما الذي دفعنا إلى الذهاب هناك؟**

**أجابني بخفوت أيضًا:**

**- كنت أسعى وراء أخي..**

**صمت ثم أردف:**

**- وكان هو يسعى وراء..**

**أعاد الصمت ثم قطعه:**

**- كنوز الملك سليمان.**

*** * ***

# 11- الطريق القديم

في مساء اليوم الثالث لنا في الصحراء، أدركنا أنَّ هناك أمرًا غريبًا، وترددت بين الحمالين والحراس من الأهالي كلمة، علمت من (آلان) أنها تعني "السحر".

لم نكن نتقدم، لقد بقيت قمم جبال الملك سليمان بعيدة لا تتغير صورتها، كأننا نسير في نفس المكان، والمفترض نكون قد بلغنا مدينة (لوو) عاصمة قبيلة (كوكوانا) في منتصف هذا اليوم.

جاءنا (صموئيل) يسألنا:

- هل أنتم على يقين أنَّ هذا الطريق يؤدي إلى وجهتكم؟

نظر بعضنا إلى بعض، لم يكن لدينا شك في هذا، الغابة، كوخ أخ السير (هنري)، قمم الجبال البعيدة، كل شيء يُخبر إننا لم نُخطئ المكان، ولا الطريق، ولكن هناك شيء غريب لا نفهمه، كيف لم نصل وجهتنا إلى الآن؟

أجابه السير (هنري):

- نحن على يقين من هذا، ولكن هناك أمرًا لا نفهمه!

قلت:

- سنعود.

نظر إليَّ الكابتن (جود)، سألني:

- نعود! إلى أين؟

أجبته:

- إلى الغابة التي انطلقنا منها.

الآن:

**- وبعدها، ماذا نفعل؟**

**أجبته:**

**- نعود إلى (سيتاندا)، ومنها نذهب من الطريق القديم.**

**الكابتن (جود):**

**- الطريق القديم؟!**

**قلت:**

**- الطريق الذي سلكناه في رحلتنا الأولى إلى جبال الملك سليمان.**

**الآن:**

**- الطريق المذكور في خريطة (جوزيه دي سيلفستر).**

**قال السير (هنري) وهو ينظر إلى (صموئيل):**

**- لنفعل هذا.**

**لم يتغير شيء من أسارير وجه (صموئيل)، فقط هزَّ رأسه واستدار يُعد معسكر الليلة.**

*** * ***

**في الصباح عادت قافلتنا من طريقها، وعند الظهيرة أيقنا أنَّ هناك أمرًا غريبًا، لقد بلغنا الغابة التي انطلقنا منها، المسافة التي قطعناها في ثلاثة أيام ذهابًا، قطعناها في نصف يوم إيابًا.**

**توقفنا في الغابة بقدر الاستزادة بالماء والحصول على صيد للعشاء، وواصلنا الطريق إلى قرية (سيتاندا)، حتَّى بلغنا موضع معسكرنا السابق فيها بعد غروب الشمس.**

**في مساء اليوم التالي انطلقت القافلة في الصحراء، والرحلة فيها مخاطرة عظيمة، علينا أن نقطع مائة وثلاثين ميلًا في هذه الصحراء، حيث لا مأوى، ولا مكان نستظل به، وأقرب مصدر للماء يقع على بعد ثمانين ميلًا، حيث يوجد النبع المذكور في خريطة (جوزيه دي سيلفستر) والذي عثرنا عليه في المرّة الأولى.**

**واستقر رأينا على تكرار ما فعلناه المرَّة الأولى، نسير ليلًا ونتوقف نهارًا، وتزودنا بكميات كبيرة من الماء لأجلنا ولأجل الحيوانات.**

**كان هناك أمر نخشاه كثيرًا، هو أن يتكرر ما حدث في المرّة السابقة، أن نسير في الطريق بلا تقدم، وفي صباح اليوم الثالث أيقنّا أننا نتقدم، ونحن نرى قمم الجبال تزداد وضوحًا وحجمًا، وظهرت معضلة جديدة، الصحراء أنهكتنا مع الحيوانات وشربنا كميات كبيرة من الماء، حتَّى أوشك الماء على النفاد، رغم أننا لا نتحرك نهارًا ونقضي يومنا إلى العصر في العربات، وقام (غوريب) و(صموئيل) بعمل مظلات بسيطة سهلة التركيب والفك من الجلد وبعض الأخشاب المحمولة في العربات لأجل حماية الحيوانات من الشمس ولهيبها.**

**غوريب:**

**- يجب أن يكون النبع قريبًا وإلّا ستهلك الحيوانات ونحن من بعدها قريبًا.**

**طمأنه (آلان):**

**- سنبلغه الليلة.**

**وعصرًا فككنا معسكرنا، وواصلنا طريقنا، وعند منتصف الليلة السادسة بلغنا موضع النبع، ولم نجده.**

**سأل (صموئيل):**

**- أين النبع؟**

**آلان:**

**- هنا، هذه هي التلة، وهذه هي الصخور التي تحيط به.**

**غوريب:**

**- ولكن لا يوجد نبع هنا.**

**السير (هنري):**

**- لقد طُمر.**

**نظر إليه (صموئيل)، قال:**

**- طُمر؟! كيف؟**

**أجبته:**

**- بهذه الرمال والصخور.**

**غوريب:**

**- مَن فعلها؟**

**الكابتن (جود):**

**- الذي لا يرغب في بلوغنا وجهتنا.**

**صموئيل:**

**- وهو؟**

**أجبته:**

**- الذي جعلنا نسير ثلاثة أيام في نفس الموضع.**

**انحنى (غوريب) يزيح الصخور، وهو يقول:**

**- إذا كان هنا نبع فسأجده.**

**نادى (صموئيل) الحمالين والحراس وتعاون الجميع ونحن معهم على إزالة الصخور والرمال دون أن يبدو أثر للماء، حتَّى أصابنا اليأس من العثور عليه، ولكن (غوريب) طلب منَّا الاستمرار في الحفر وهو يعطي (صموئيل) شيئًا ما، جعله يزداد حماسًا ويطلب منَّا عدم التوقف ومرر إلينا ذلك الشيء، فإذا هو حفنة من الرمال بها بلل طفيف، استعدنا همتنا وحفرنا بحماس أكبر، ووصلنا الصخرة التي ينبجس منها الماء، وارتفعت من الجميع صيحات الارتياح والفرح والسرور.**

**شربنا وأسقينا الحيوانات حتَّى أرتوت، وملأنا كل الآنية بالماء وزال خطر نقصان الماء، واستبشرنا بالوصول إلى جبلي (صدر شيبا) الذين يبعدان عن النبع مسافة خمسين ميلًا، ومنهما يبدأ الطريق المرصوف إلى جبال الملك سليمان.**

**عند فجر الليلة التاسعة من مغادرتنا قرية (سيتاندا) بلغنا سفحي جبلي (صدر شيبا)، غمرنا الارتياح والسرور ونحن ننظر إلى الجبلين الشامخين، وتناولنا إفطارنا من الفاكهة البرية على أشجارها على سفوح الجبال.**

**صموئيل:**

**- والآن، إلى أين؟**

**أجبته وانا أشير الجبل الأيسر:**

- سندور حول هذا الجبل إلى الجانب الآخر.

غوريب:

- ثم؟

هنا اختلفنا أنا و(آلان) مع السير (هنري) والكابتن (جود) حول أيهما أفضل، هل نصحب القافلة معنا أم تنتظرنا بجوار الجبل؟

كنت و(آلان) نفضل بقاء القافلة بجوار الجبل في حالة اضطرتنا الظروف للفرار السريع، خاصة وأن طريقنا الى هنا يخبر بوجود أمر غامض ومخيف، وبعد شد وجذب اتفقنا على بقاء (صموئيل) و(غوريب) والحمالين مع القافلة، وذهاب حراس السير (هنري) والحراس من الأهالي معنا.

السير (هنري):

- هل تستطيع الثيران إكمال الطريق حول الجبل.

غوريب:

- هل سنجد ماء في الجانب الآخر من الجبل؟

الكابتن (جود):

- ستجد هناك كل ما تريده.

نظر (غوريب) إلى (صموئيل)، وقال:

- سنمنح الثيران والخيول بضع ساعات للاستراحة ونسقيها ونطعمها، ثم نواصل الطريق.

عند الظهيرة تحركت القافلة حول الجبل، لم يكن هناك طريقًا مسلوكًا، بل أرض وعرة مليئة بالصخور والأعشاب والنباتات، وتعاون الجميع على فسح الطريق أمام القافلة، وقمنا بإزاحة الصخور وأحيانًا تحطيمها، واقتلاع

**النباتات الشوكية، وقطع الأشجار بالمعدات الوفيرة الموجودة في صندوق المعدات أسفل كرسي سائق كل عربة.**

**ورغم المسافة القصيرة إلى الجانب الآخر من الجبل والتي تبلغ بضعة أميال، بلغنا الجانب الآخر مع المساء، وقدنا القافلة إلى حيث ينساب الماء من الثلوج على قمة الجبل، ويصنع عند سفحه غديرًا تحيط به الأعشاب الخضراء.**

**سُرَّ (غوريب) و(صموئيل)، وقلت لهما:**

**- هنا يتوفر الماء والطعام للجميع.**

**أقمنا معسكرنا وقد غمرنا شعور أننا بلغنا هدفنا، رغم الرهبة مما ينتظرنا والقلق من قرب انتهاء المهلة الممنوحة لنا، فبعد أسبوعين يغيب القمر الخامس والأخير، ومعه يغيب الأمل في التخلص من اللعنة التي أصابتنا، لم تسوء حالة أحدنا، وهذا زادني إيمانًا أنَّ الله يريد لنا أن نصلح ما أفسدناه وأن نرفع اللعنة عنّا، أما حوادث الطريق فهي ولا شك من فعل مَن ردم ينبوع الماء، وجعلنا نسير ثلاثة أيام في نفس المكان.**

**سألني الكابتن (جود) وهو ينظر إلى القمر المكتمل في كبد السماء:**

**- هل سنفلح في مسعانا؟**

**أجبته وأنا أشاركه النظر إلى القمر:**

**- نعم، سنفلح، ولكن إن كنت تسألني هل سننجوا ونعود، فأجيبك إنني لا أعلم.**

**انضم إلينـا (آلان)، قال وهو ينظر إلى القمر:**

**- سننجح وسنعود.**

**وأنزل نظره إلينا وأردف:**

**- جميعًا، لن نترك أحدًا وراءنا.**

** * **

**انكشف في الصباح الوادي الجميل أسفل الجبل، الوادي الذي رأيناه سابقًا، ويقع أسفل الجبل بنحو خمسة آلاف قدم[8] ويمتد على مساحات شاسعة تنتهي بنهر يتلألأ ماؤه في ضوء الشمس وخلفه غابة خضراء كبيرة، وعلى اليمين تلال على سفوحها مزروعات وعلى اليسار مراع خضراء ترعى فيها المواشي والأبقار، مشهد قريب من الصورة العامة لقرية (سيتاندا) ولكن أكثر اتساعًا وجمالًا وثراءً.**

**وقف جميع من في القافلة ينظر إلى الوادي في ضوء النهار، وقال السير (هنري):**

**- أيُّها السيدان، هنا مكان إقامتكما، ستتمتعان بهذا المشهد الرائع حتَّى نعود.**

**نظر إليه (صموئيل) و(غوريب) قبل أن يعيدا نظرهما إلى الوادي، ويقول أولهما:**

**- هل نحن في أمان هنا؟**

**أجابه الكابتن (جود):**

**- في أمان، والمزيد من الحيطة والحذر لن يضراكما.**

**نظر السير (هنري) إلينا، قال:**

---

[8] القدم هو قرابة ثلاثين سنتيمتر ، 1 قدم =30.48 سنتيمتر

**- والآن أيُّها السادة، هيا بنا.**

**تركنا عربة الخيول في موضعها وأخذنا خيولها السبعة لنا وللطبيب (إدوارد) وخادم السير والسابع للمتاع، اما حراس السير والآخرين من الأهالي فامتطوا خيولهم الخاصة.**

**واتجهنا يمينًا إلى الجسر الجميل المبني من الصخر، ويؤدي إلى الممر الواسع المنحوت في صخر الجبل، ويبلغ اتساعه خمسين قدمًا، بلغنا الجزء المنحوت في الجبل وعلى جانبيه نحت لرجال مسلحين يقودون مركبات حربية، ومناظر لمعارك حربية وأخرى لأسرى.**

**كانت المناظر مألوفة وقد رأيناها في عبورنا السابق، أمَّا المنظر غير المألوف هو أكوام الصخور التي تغلق نهاية الممر بالكامل، وتحول بيننا وبين التقدم.**

**لم تكن هناك حاجة للسؤال عمّن فعل هذا، فالجواب معلوم لنا جميعًا، ترجلنا عن خيولنا، وأخذنا جانبًا من الممر وشرعنا في إزالة الصخور بالقدر الذي يسمح بمرور فرس واحد، وبعد ثلاثة ساعات صار الطريق مُعدًا للعبور، تجاوزنا الممر إلى الجهة الأخرى من الجبل لنسير في طبيعة صخرية وعرة جدًّا، وتنهال علينا السهام والرماح من كل حدب وصوب.**

**وجرح رمح كتفي، وانغرس سهم في فخذ الكابتن، وسقط حارس من الأهالي قتيلًا، واضطربت الخيول، وتعالت صيحات الحرب من حولنا، وفوجئنا بالرماديين خيرة جنود (كوكوانا) ببشرتهم السوداء وقاماتهم الطويلة، وأرياش سوداء على رؤوسهم، ودروعهم الرمادية، وأرديتهم المصنوعة من**

جلود الحيوانات، ينقضون علينا من بين الصخور ومن فوقها بالرماح والبلطات.

وشهرنا بنادقنا وأطلقناها ورأينا بعضهم يسقط، ولم نملك الوقت لإطلاق طلقة أخرى، وانتزعنا مسدساتنا التي لا تجدي نفعًا مع هذه المسافة التي تفصلنا عن المحاربين وتزيد عن مائة وخمسين ياردة، فمسدسات ويبلي لا يزيد مداها عن ثلاث وثلاثين ياردة.

صاح الكابتن (جود):

- لنرجع إلى الممر.

أدرنا الجياد بسرعة وهمزناها لتسرع بنا عائدة إلى الثغرة التي خرجنا منها، ودخلنا الممر ووثبنا عن خيولنا واتخذنا لنا مواقع وراء الصخور على جانبي الثغرة، والمحاربون يتقدمون ركضًا نحونا.

صاح (آلان) بأعلى صوته بلغة الزولو التي يجيدها:

- انفادوس، نحن القادمون من النجوم، نحن أصدقاء الملك (اجنوسى).

لوهلة رأينا المحاربين يقفون في أماكنهم مع صيحته، قبل أن يرفع أولهم رمحه عاليًا ويصيح بأعلى صوته بكلام لم نفهم منه سوى كلمة (اجنوسى)، ليعود المحاربون يندفعون نحونا بهمة أعظم.

هتف (آلان):

- إنَّه يقول "لقد عاد المحتالون، عاد أعداء الملك (اجنوسى)، عاد أعداء مملكة (كوكوانا).

بقوله هذا علمنا أنَّ الطريق إلى (كوكوانا) قد أُقفل في وجوهنا، صحت في الآخرين أن يسعادوني في دفع صخرة كبيرة لإغلاق الثغرة، وطلبت من

**الحراس أن يستعدوا ببنادقهم، ومع دحرجة الصخرة الثانية أطلق الحراس بنادقهم، وبدأوا يعيدون حشوها، مع استقرار الصخرة الثانية في موضعها، أُغلق الجزء السفلي من الثغرة، واتخذنا مواقعها خلفها، وبلغ المحاربون موضعًا جعل لمسدساتنا جدوى، وبدأنا في إطلاق النار وتساقط المحاربون.**

**أشد ما واجهه الإنجليز في حربهم مع الأفارقة، هي شجاعة هؤلاء، واستفادتهم من خبرات الحرب وتطوير أساليبهم حتَّى أوشكوا على هزيمة الإمبراطورية البريطانية أكثر من مرَّة.**

**ومن فضل الله علينا أنَّ محاربي (كوكوانا) كانوا بمعزل عن العالم أجمع، فلم تكن لديهم المعرفة والخبرات اللازمة لمواجهة بنادقنا، والتي كانت في زيارتنا الأولى لهم "سحر القادمين من النجوم".**

**وتبقى الشجاعة، فلم يهتموا بمن سقط منهم، وواصلوا الاِنقضاض علينا، ووثب أحدهم من الثغرة لاستقبله بخنجري، وتدفعه ركلة من أحد الحراس إلى الخلف ليسقط بين رفاقه، ولم تسمح الثغرة الضيقة بيننا سوى بعبور محارب أو اثنين في نفس اللحظة، فكانت مسدساتنا كافية بالقضاء عليهم، وبعد حين أدرك المحاربون أنَّ معركتهم خاسرة وبدأوا يتراجعون، في الوقت الذي انتابنا فيه القلق من نفاد ذخيرتنا.**

**سارع الطبيب (إدوارد) إلى الكابتن (جود)، وانتزع السهم من فخده، وأخذ يطببه بأشياء من حقيبته التي لا تفارقه، ثم انتقل إليَّ، كان جرح كتفي طفيفًا واكتفى بتنظيف الجرح ووضع ضمادة صغيرة، وأنا اسمع (آلان) يقول:**

**- سيعودون.**

**عقَّبت:**

**- حتمًا، هل رأيتم أمرًا غريبًا؟**

**التفتت إليَّ الأنظار دون كلام، تابعت:**

**- لم تعد بنادقنا تُخيفهم، تبدو أمرًا مألوفًا لهم، لقد ذهب "سحر القادمين من النجوم".**

**أومأ رفاقي برؤوسهم، في حين لم يفهم الآخرون مغزى حديثي، وقال السير (هنري):**

**- بل هناك ما هو أخطر من ذلك.**

**وأردف بعد هُنيهة:**

**- اجنوسى يعلم أننا عرفنا حقيقة أمره، وأعد العدة للقضاء علينا ومنعنا من تحقيق غايتنا.**

***

## 12- كيف السبيل إلى هناك؟

**أضاء قوله الحقيقة أمام أبصارنا، وأدركنا أنَّ مهمتنا صارت شاقة جدًّا، أطرقنا رؤوسنا ونحن نفكر في قوله ونبحث عن بديل، وقطع الكابتن (جود) صمتنا بإشارة لحارس مع طلبه بإحضار جرَّة البارود من على ظهر فرس المتاع، وشرعنا جميعًا في تعبئة خراطيش الإطلاق.**

**أشار السير (هنري) على الحراس بإكمال إغلاق الثغرة، وزيادة تحصينها، إلى أن بلغ ارتفاع الصخور قامة أطولنا.**

**آلان:**

**- ماذا سنفعل؟**

**أجبته بسرعة:**

**- يجب أن نعبر للجهة الأخرى ونذهب إلى (كوكوانا).**

**الكابتن (جود):**

**- ولكننا لا نعرف أحدًا هناك!**

**السير (هنري):**

**- وانظر إلينا كم نختلف عنهم في كل شيء، الهيئة ولون البشرة والملابس، لا نستطيع أن نتخفى بينهم.**

**قلت:**

**- أعلم هذا، لا يجب علينا أن نتخفى بينهم، بل يجب علينا أن نتخفى عندهم.**

**لم أوضح أكثر، وأردفت:**

**- علينا الآن تحذير (غوريب) و(صموئيل)، وإخبارهم بضرورة إخفاء القافلة.**

**وافقني الكابتن (جود):**

**- هذا حق، ويجب أن نستعد لهجوم الليلة.**

**قاطعنا أحد حراس السير (هنري):**

**- هجوم الليلة! هل سيعاودون الكرَّة؟**

**آلان:**

**- نعم، لا شك أنهم يدرسون الآن خطة الهجوم، وكيفية عبور حاجز الصخور هذا إلينا.**

**أسرع أحد الحراس من الأهالي على فرسه لتحذير السائقَين، لم نكن ابتعدنا عنهم أكثر من ثلاثة أرباع الميل، في حين انهمكنا جميعًا في وضع خطة لحماية موضعنا.**

*** * ***

**في الفجر بدأ هجوم محاربي قبيلة (كوكوانا)، الهجوم بدأ بمفاجأة عظيمة لنا، بدأ بانفجار هزَّ الممر وجعل الصخور التي تُغلق الممر تتدحرج عن مواضعها.**

**همست من موضعي:**

**- ما هذا؟**

**أجابني الكابتن (جود) هامسًا:**

**- لا أعلم، ولكنه أشبه بالانفجارات التي تفعلها المدافع الميدانية.**

**آلان هامسًا:**

**- مدفع ميداني! من أين جاءوا به؟**

**الكابتن (جود):**

**- لا أعلم، رُبَّما شيء آخر يقوم بالأمر نفسه.**

**هزَّ الممر انفجار آخر، جعل الصخور تُزاح أكثر، وتنهار الصخور التي أغلقنا بها الثغرة لتصنع فتحة واسعة، اندفع منها المحاربين لتستقبلهم أسلحة الحراس، وقد استخدمنا أسلوب شبيه بالجيوش النظامية، السطر الأول يطلقون بنادقهم ثم يجثون ويعيدون الحشو، السطر الثاني ينهض ويطلقون بنادقهم ثم يجثون، ومن معهم المسدسات في طرف السطر الأوَّل يحرصون على استمرار التصدي للمحاربين.**

**ربت بيدي على كتف (آلان) وهمست:**

**- لقد جاءوا.**

**من مخبئنا رأينا في ضوء القمر وقت الفجر، محاربي (كوكوانا) وهم يتسللون من خلف الجبل متجهين إلى الممر، حبسنا أنفاسنا في انتظار إشارة الكابتن (جود).**

**كان المحاربون قد بلغوا نقطة التقاء الجسر الحجري بالممر في داخل الجبل، وبدأوا التدفق إلى داخل الممر، ليحاصروا الحراس من جانبي الممر، حين ارتفعت صيحة الكابتن (جود):**

**- هجوم.**

**فور سماعنا الصيحة اندفع كل منا إلى مهمته، خرجنا من أسفل الجسر الحجري، انا ركضت نحو حبل مشدود لأجذبه لتتساقط أكوام من الأشجار الشوكية على فتحة الممر وما حولها لتغلق الطريق على الباقين، و(آلان)**

**أشعل النار في الشجيرات والحشائش المنثور عليها الزيت ودهن الحيوانات، لتصير ما حول فتحة الممر جحيمًا.**

**ارتبك المحاربون وحُوصر بعضهم، واشتعلت النيران في البعض، كانت عادة الكثير من القبائل الإفريقية هي دهن أجساد المقاتلين بدهن الحيوانات، ويبدو أنَّ هذه العادة موجودة لدي محاربي (كوكوانا)، فبعضهم صار شعلة من النيران في ثوان وأخذ يركض كالمجنون يحاول إطفاء النار، لقد أحسن الكابتن (جود) الاستفادة من هذه المعرفة التي مدَّه بها (آلان)، لم تكن مفاجآتنا انتهت، فمن عدة مواضع فوق الجبل أُطلقت من المجانيق البدائية - التي صنعناها في النهار- عدة قذائف مشتعلة من اغصان الأشجار نحو محاربي (كوكوانا)، لتنتشر النار في نطاق واسع، ومن مواضع عدة في الجبل بدأ القسم الآخر من الحراس في إطلاق بنادقهم، وانضممنا إليهم من مواضعنا تحت الجسر.**

**أدرك المحاربون الكمين الذي أعددناه لهم، وأخذوا يتراجعون بسرعة - رغم أعدادهم الكبيرة- وهم يتصايحون، ولم نتوقف عن إطلاق بنادقنا حتَّى اختفت أصواتهم تمامًا.**

**حافظنا على مواقعنا، وتطوعت بتقصي أخبار الحراس داخل الممر، وركضت حتَّى بلغتهم، لأجد أحدهم صريعًا وآخرَين جُرحى، وجاء الطبيب خلفي وشرع يداوي الجرحى، وتعاونت مع الآخرين على إغلاق الثغرة من جديد، ولم نبقي فيها فجوة، وتركت حارسًا وتعاونت مع الطبيب والآخرين على نقل القتيل والجرحى إلى خارج الممر، لم نمش سوى خطوات حتَّى وجدنا (آلان) مع فرسين، وضعنا القتيل على الأوَّل والجريحان على الآخر.**

* * *

**أكملنا دفن القتيل وإخفاء القافلة وطمس أثارها، واطمأننا أنَّ (غوريب) و(صموئيل) والطهاة والجريحين في مكان آمن بعيد عن الخطر، وأخبرت الآخرين:**

**- سأذهب مع (آلان) بعد غروب الشمس، وندخل (لوو).**

**قاطعني الكابتن (جود):**

**- سيُكشف أمركما.**

**قلت:**

**- لا، سنحرص على التخفي ولن نخالط القوم ولن نتحدث إليهم، بل سنختبئ نهارًا ونتحرك ليلًا.**

**السير (هنري):**

**- سأذهب معكما.**

**قلت:**

**- كلما قلَّ عددنا كان أفضل، و(آلان) يفهم لغتهم ويجيد التحدث بها، وانتظرونا ثلاثة أيام، بل خمسة أيام، الطريق يستغرق يومًا للذهاب هناك وآخر للعودة.**

**الطبيب:**

**- هل سيعاود المحاربون الهجوم؟**

**الكابتن (جود):**

**- لا شكّ في ذلك، ولكننا سنختبئ ولن نقاتل، مما يجعلهم يظنون إننا فررنا من المكان.**

**السير (هنري) وهو ينظر إليَّ:**

**- ماذا ستفعلون هناك؟ كيف ستعثرون على أتباع الملك (توالا)؟**

**أجبته:**

**- اطمأن، سنعثر عليهم ونعود معهم.**

**وخاطبت انظارهم الشاخصة إليَّ:**

**- تحوم الأُسُد حول مراعي الظباء.**

*** * ***

**انقضى اليوم بلا أحداث، وشاهدنا باستخدام المِرْقَاب[9] بعض محاربي (كوكوانا) وهم يراقبون منطقة الجسر ويحاولون تقصي آثارنا، ولم نحاول الاشتباك معهم واكتفينا بمراقبتهم بالمِرْقَاب.**

**بعد غروب الشمس، بدأنا العدة للانطلاق، وقمت أنا و(آلان) بخلع ملابسنا ودهن جسدينا بخليط من دهن الحيوانات والفحم، وارتدى كلا منّا قطعة من جلد الحيوانات حول وسطه، وبعض العظام التي عثرنا عليها في الجبل حول أعناقنا، حتَّى صرنا صورة من أهالي (كوكوانا)، لم نقصد بذلك خداع الأهالي، فحتمًا سيكشفون أمرنا، بل كي يسهل علينا التخفي بينهم ليلًا، وحملنا بعض الماء واللحم المجفف ولم نحمل البنادق واكتفينا بالمسدسات**

---

[9] المِرْقَاب هو المنظار المقرِّب، وهو في زمن القصة عبارة عن أنبوب واحد على طرفيه عدسات للتقريب، ويوضع على إحدى العينين لرؤية الأشياء البعيدة.

وانطلقنا، واتخذنا الطريق الذي سلكه المحاربون للإنقضاض علينا، بالالتفاف حول الجبل صعودًا ثم الهبوط، وبعد مسيرة ساعة وجدنا معسكرًا للمحاربين على الطريق، ابتعدنا عنهم وقمنا باستدارة واسعة لتجاوز المعسكر، الأمر الجيِّد في المعسكر أنَّه يقوم بحراسة الطريق، فلم يبد عليهم أي مظهر من مظاهر الاستعداد لمعركة ما، كما أنَّ عددهم قليل لشن معركة.

همس (آلان):

- لا زلنا في أوَّل الليل، رُبَّما يأتي المزيد ويهاجمون عند الفجر كما حدث بالأمس.

عقَّبت:

- رُبَّما.

بلغنا الجهة الأخرى بعيدًا عن المعسكر، وواصلنا الطريق إلى مدينة (لوو) عاصمة مملكة (كوكوانا)، ابتعدنا عن المعسكر قرابة ميل، وبدأ القمر في البزوغ، حين انتبهنا لأحدهم قادم على الطريق، سارعنا بالتواري حول شُجيرة من الأشجار التي تكثر على جانبي الطريق، وانتظرنا مروره، ومضت برهة وأخرى ولم يمر.

همس (آلان):

- أين ذهب؟

أجبته وأنا أحاول رؤية الطريق في ضوء القمر:

- لا أعلم.

**لا يزال نور القمر المكتمل ضعيفًا، ولكنه يُظهر معالم الأشياء، ولم أر أثرًا للقادم على الطريق، ولا أعلم أين ذهب، كأنَّه تلاشى في الهواء.**

*** * ***

## 13- نومسا

سمعت (آلان) ينادي باسمي بلا همس، التفت إليه لأجده كما كان جاثيًا على ركبتيه ومن خلفه ظل شامخ، لم أبصر ما حدث، ولكنني أدركته رغم الظلام، لقد رآنا القادم على الطريق، واستدار من خلفنا، وانقضَّ على (آلان) من الخلف ووضع خنجرًا على عنقه.

تحدث الظل بصوت غريب خشن، ورد عليه (آلان)، واستمر حديثهما لحظات، بدا فيها الظل غاضبًا ولا يصدق ما يقوله (آلان)، الأخير استغل فرصة جاءته ليبعد الخنجر عن عنقه ويدفع الظل بعنف للخلف، ليتراجع ويوشك على السقوط على ظهره، وانتزع (آلان) مسدسه، ولكنني أمسكت ذراعه وهتفت هامسًا:

- لا تفعل.

رُبَّما يصل صوت المسدس إلى المعسكر أو أحد قريب من المكان، فيُفتضح أمرنا، كما أنَّ هناك شيئًا في صوت الظل وطريقة اندفاعه جعلتني أشك في أمره، الظل رآنا ننهض إليه، فهرب بين الشجيرات واختفى بينها، هتفت:

- يجب أن ندركه قبل أن يفتضح أمرنا.

وقفنا ننظر حولنا وبين الشُجيرات تحت ضوء القمر، ولم نبصر الظل، سرنا بحذر في الاتجاه الذي هرب إليه، رغم علمنا بالمخاطر العظيمة لما نفعله، بعد لحظات من البحث الدقيق، أمسكت بذراع (آلان) وأشرت إلى ظل على الأرض يخالط ظل صخرة بعيدة في ضوء القمر، أخذ كلا منا اتجاه واطبقنا عليه من الجانبين، فطن الظل إلينا، وانقض بخنجره عليَّ، أمسكت يده لأحول بينه وبين غايته، وجاء (آلان) من خلف الظل وأحاط عنقه بذراعه اليمنى

ويده اليسرى تمسك ذراع الظل اليسرى، عصرت يد الظل حتَّى أسقط الخنجر، وتحشرجت أنفاس الظل و(آلان) يواصل اعتصار عنقه، هتفت:

- آلان، كفى.

لم يستمع إلي، فكررت قولي:

- آلان، كفي أنها امرأة.

بوغت (آلان) بالأمر، سكن في موضعه قبل أن يهتف:

- ماذا؟

قلت:

- إنها امرأة.

أفلتها (آلان) وحاولت الفرار مرَّة أخرى، ولكنني أمسكت بها، و(آلان) يقول:

- أحقًا ما تقول؟

أشرت إلى صدرها في ضوء القمر الشاحب، وأنا اجيبه:

- نعم.

أدركَ ما أعنيه، فالرجال لا يحجبون صدورهم، في حين تضع النساء جلود الحيوانات أو الخرز أو كليهما لإخفاء أجسادهن، كما أنني أدركت شيئًا غريبًا في صوتها، وهيئتها حين دفعها (آلان) عنه.

آلان:

- ماذا سنفعل بها؟

أجبته:

- أسألها من تكون وماذا تبغي؟

**سألها (آلان) ولم تجبه، وكرر السؤال فصدر من أنفها صوت كأنها تنفر منه، سألته:**

**- عمَّا كانت تتحدث حين باغتتك؟**

**أجابني:**

**- كانت تسألني عن القادمين من النجوم، فلما أخبرتها أنني لا أعلم، غضبت وهددتني بالقتل، فقلت لها إننا نحن القادمون من النجوم، فزاد غضبها وكان ما كان.**

**سألته:**

**- ماذا تريد منَّا؟**

**ألقى سؤالي عليها، وردت عليه بالتجاهل التام، سألت:**

**- آلان، هل تحمل معك أعواد ثقاب؟**

**آلان:**

**- أعواد ثقاب؟ أظنُّ هذا.**

**اقتربت منه ورفعت طرف قطعة الجلد عن فخذه وفركته بقوة، احتفظت بطرف قطعة الجلد في يدي، قلت له:**

**- أشعل الثقاب، واحذر أن يبدو ضوؤه.**

**فهم مقصدي، وأخرج الثقاب من المتاع الذي يحمله، وأشعله وهو يحيطه بكفيه حتَّى لا ينتشر نوره وأدناه من البقعة التي فركتها، ليبدو جلده الأبيض، شهقت المرأة، وصاحت بكلمة، دارت بعدها مشادة بينها وبين (آلان)، تبعه قيام (آلان) بفرك بقعة من فخذه الآخر وأشعل عود ثقاب آخرًا، ليدور بعدها حديث هادئ بينهما، ونقل (آلان) إليَّ فحواه:**

**- تقول إنها كانت ذاهبة للبحث عن القادمين من النجوم، لتفضح حقيقة الملك (اجنوسى)، وتطلب عونهم في القضاء على الملك (اجنوسى) وتخليصهم من شرّه، حين فوجئت بنا ونحن نحاول الاختفاء، فظنّت أننا نريد بها شرًّا.**

**سألت:**

**- ماذا عن (اجنوسى) وجنوده؟ ماذا يفعلون الآن؟**

**سألها (آلان) ونقل حديثها إليَّ:**

**- تقول أنَّه سحب جيشه إلى مدينة (لوو) ويقوم بتحصينها، بعد أن عاد القادمون من النجوم بجيش كبير قوي، وهو يخيف الناس أنَّ القادمين من النجوم جاءوا بجيوش للاستيلاء على كنوز الملك سليمان، وأنهم سيقتلون الجميع للحصول عليها..**

**سألت:**

**- وماذا عمَّن بقي من قادة وأتباع الملك (توالا)؟**

**نقل إليَّ عنها:**

**- بعد أن تظاهر (اجنوسى) بالعفو عنهم أمامنا، غدر بهم جميعًا بعد ذهابنا، وقتلهم واستولى على أموالهم، وأذاق الناس الأمرَّين، أنَّه يقول أنَّ الناس خذلوا والده، ولم يقفوا في وجه (توالا)، وتسببوا في مأساة أمه وتشريده، وهو يحكم مملكة (كوكوانا) مع عمه (انفادوس) بالحديد والنار.**

**أُسقط في يدي، لقد كنا نراهن على حلفاء وأتباع الملك (توالا)، والآن لم يبق منهم أحد، والأمران الذان يثيران حيرتي هما كيف علم (اجنوسى) بقدومنا؟ وكيف لا يكون هو ملكًا شرعيًا لمملكة (كوكوانا)؟**

**نقل إليَّ (آلان) جواب الأوَّل:**

**- الساحرة (غاغول) هي..**

**قاطعته:**

**- (غاغول)! كيف؟ لقد ماتت أمام أنظارنا سحقًا تحت الباب الحجري!**

**آلان:**

**- سألتها عن هذا، تقول أنَّ (غاغول) لم تمت وهي حيّة تخدم الملك (اجنوسى)، وهي من أخبرت عن قدومنا وحذرت الجميع من التعاون معنا، وأنَّها ستعلم من سيفعل هذا، وتوعدته بعقاب من الملك (اجنوسى)، وقتل أبنائه وأخذ نسائه وهدم بيته والاستيلاء على حيواناته.**

**بعد صمت قصير، سأل (آلان):**

**- والآن، ماذا سنفعل؟**

**لا أعلم بما أجيبه، (اجنوسى) ينتظرنا، وتحت يده مائة ألف من الجنود، كانوا للملك (توالا) ثمّ صاروا له، ولم يبق أحد من اتباع الملك (توالا)، ولا نعلم شيئًا عن أي وريث شرعي للملك (توالا)، بل لا نعلم كيف لا يكون (اجنوسى) ملكًا شرعيًا رغم يقيننا بذلك؟!**

**أشرت إلى المرأة، وقلت:**

**- نعود ونأخذها معنا، وهناك نتداول الأمر ونرى ماذا سنفعل؟**

**عدنا من طريقنا ومعنا المرأة تسير دون أن تحاول الفرار، بل تعاوننا على الاختباء وتجاوز معسكر المحاربين والعقبات، كان هناك شيئًا مألوفًا فيها، ولا أعلم ما هو!**

**قبل الفجر بلغنا مخبئنا وهو مجموعة صخور كبيرة صنعت مأوى بلا سقف في الجهة المقابلة للصحراء من الجبل الأيسر من جبلي (صدر شيبا)، لنجد**

**مأساة تنتظرنا، وفي ضوء عود ثقاب رأينا الجميع ملقى على الأرض، في مجالسهم وعيونهم شاخصة واللعاب يسيل من أفواههم، والسير (هنري) غُرس خنجر طويل في جنبه، هُرع (آلان) إلى إنقاذ الأخير، أشعلت مصباح زيت دون أن أبالي بكشف مخبئنا، وهُرعت أنا إلى أهم رجل فيهم، إلى الطبيب (إدوارد)، ويبدو أنَّه سقط وهو يحاول الوصول إلى حقيبته، ويده تهتز وترتجف ولا تُطيعه، أسندت ظهره إلى صخرة، وأمام عينيه أفرغت حقيبته، وبمشقة شديدة منّي وبعزيمة قوية منه اتبعت تعليماته التي يلقيها بإغماض عينيه، كنت أضع يدي على الشيء وانتظر منه أن يطرف بعينه، وأحاول تخمين ما يريده، حتَّى نجحت أخيرًا في العثور على ما أراده، ومزجته بالماء وأسقيته له، قلت أنني سأعطي الآخرين منه، فطرف بعينه، والتفت إلى الآخرين لأجد المرأة تحمل في يدها ثمار صغيرة أشبه بالتوت الأسود لنبتة رأيتها في الجبل، وتقوم بعصر الثمرة في فم الرجل وتنتقل للآخر، حاولت إسقاء أحد الرجال، ولكن يدها منعتني، وقالت كلمة، جاء على أثرها (آلان) يقول:**

**- لا تفعل، هي ستقوم بمدواته.**

**بعد نصف ساعة بدأ التحسن يظهر على الرجال، وينهضون من مواضعهم بوهن، وزحف الطبيب إلى السير (هنري)، وبمعونة (آلان) رفع الضمادة التي وضعها الأخير، وعاين موضع الطعنة وشرع في مداواة الجرح، ورفع السير (هنري) سبابته وهو يحاول قول شيء ما، وتتحرك شفتاه بلا صوت، أدنيت أذني من فمه، لأسمعه يقول بوهن:**

**- الخادم، أدركوا الخادم، سيفضح أمرنا.**

**استدرت إلى (آلان)، سألته:**

**- أين خادم السير (هنري)؟**

**تلفت حوله، وأجابني:**

**- لم أره فيهم، أين هو؟**

**أشرت له أن يتبعني وأنا أقول:**

**- لقد هرب، فعل فعلته ثم هرب.**

**سألني وهو يجد السيْر بجواري:**

**- كيف علمت هذا؟ هل أخبرك السير (هنري) بذلك؟**

**أجبته ونحن نخرج من حلقة صخور مخبئنا:**

**- نعم.**

**لم يخبرني السير بذلك، ولكنني خمنت أنَّ السير (هنري) بعد أن سُمم الجميع، رأى الخادم حين جاءه ليجهز عليه، ولا شك أنَّه قاوم الخادم، لهذا اكتفى الأخير بطعنة ثم فرّ.**

**المهم الآن أن ندرك الخادم قبل أن يخبر الآخرين بأمرنا، (اجنوسى) ومن معه يظنوننا جيشًا كبيرًا، إذا علم الحقيقة سيأتي إلينا ولن نجد مكانًا نختبئ فيه ولن يُبقي منَّا أحد.**

**ادركنا أننا تأخرنا حين بلغنا معسكر المحاربين، ومن خلف صخور بعيدة وقفنا نشاهد في ضوء نيران معسكرهم ونرى حركة أجسامهم الغاضبة ونستمع لصيحاتهم العالية، و(آلان) يخبرني بما يقولون:**

**- لقد علموا بحقيقة أمرنا، وهم غاضبون ومنقسمون بين الهجوم علينا، وبين الذهاب إلى مدينة (لوو) وإحضار الجيش.**

**قلت:**

**- هيا بنا، لنعد.**

**بلغنا مخبئنا والشمس تصعد في الأفق، وهناك أدركت لماذا تبدو المرأة مألوفة، لقد كانت نسخة أكبر سنًا من الجميلة (فولاتا) التي لقيت مصرعها بطعنة خنجر من الساحرة (غاغول)، أخبرنا الجميع بحقيقة أمرنا، وأقترح الكابتن (جود) أن نصعد الجبل ونتحصن بالكهف في أعلى الجبل، الكهف الذي أوينا إليه في رحلتنا الأولى، ويحتوي جثة (خوزيه دي سيلفستر)، الرحالة البرتغالي الذي مات منذ ثلاثمائة عام، هناك البرد والثلج سيحول بيننا وبين أعدائنا، وسيحمينا منهم.**

**أخبرته أنَّ البرد والثلج عدو لنا كما هو عدو لأعدائنا، وذكرته بوفاة مرافقنا (فنتوفجل) من الصقيع في ذلك الكهف، ورُبَّما يكتفي (اجنوسى) وجيشه بحصارنا حتَّى يُهلكنا البرد والثلج في الكهف.**

**الكابتن (جود):**

**- إذًا نقاتل.**

**نظرت إلى حال الجميع، لقد نجوا من الموت، ولكن لم يستعيدوا عافيتهم، سألته:**

**- بمن؟ وكيف؟**

**آلان:**

**- إذًا ماذا سنفعل؟ هل ننتظر حتفنا في هذا المكان؟**

**نظرت إلى (صموئيل) و(غوريب)، وقلت:**

**- هناك حل، ولكنه يحتاج معونة (صموئيل) و(غوريب) وخبرتهم.**

**صموئيل:**

**- لم نقم بهذه الرحلة لنلقى مصرعنا هنا.**

**غوريب:**

**- هات ما عندك أيُّها العربي.**

*** 

**اقترب دخول وقت العصر حين وضع الحمالون المحفة التي عليها السير (هنري) أرضًا، وأخذنا ننظر من بعيد ومن وراء الصخور والشجيرات إلى العثير الهائل لجيش مملكة (كوكوانا) يتقدمهم الرماديون، وهم في الطريق إلى قتالنا.**

**أعطيت المِرقَاب إلى الكابتن (جود) ليلقي بدوره نظرة على ذلك الجيش، ونظرت إلى (نومسا) شقيقة (فولاتا)، سألتها:**

**- هل نحن بعيدون عن المكان؟**

**نقل لها (آلان) سؤالي، قال عن لسانها:**

**- بهذا السير قد نصل صخرة الأرواح بعد غروب الشمس.**

**كان الرأي عندي أن نختبئ في أراضي مملكة (كوكوانا)، ولم أجد من يعطينا بديلًا خيرًا منه، خلفنا الصحراء وأمامنا مملكة (كوكوانا)، تخلصنا من الثيران والخيول وأخفينا العربات، وسرنا في طابور واحد طويل، و(غوريب) و(صموئيل) يخفيان آثارنا، لا أعلم هل سينجحان في ذلك أم لا؟ القبائل**

**الإفريقية تبرع في اِقتفاء الأثر، ويملكون المهارة الكافية لتتبع الطرائد، فهل ما يفعله (صموئيل) و(غوريب) كاف لإخفاء آثارنا؟**

**حين سألنا (نومسا) عن مكان يصلح للاختباء، أخبرتنا عن صخرة الأرواح، وهو مكان مقدس وبعيد عن الأعين لا يأتيه أحد إلَّا في أوقات تقديم القرابين، ويُعد أفضل مكان للاختباء.**

**كانت حالة السير (هنري) تُعيق تقدمنا، وتجعل سيرنا بطيئًا، أمّا الكابتن (جود) فلا يدل شيء على إصابته سوى عرج بسيط حين يُسرع، واصلنا سيرنا البطيء، حتَّى بلغنا صخرة الأرواح بعد مغيب الشمس، وكانت صخرة الأرواح وادٍ حدوده أشبه بحدود البيضة، تحيطه الجبال والصخور، له منفذ وحيد عند الطرف الصغير الضيق، وفي وسطه صخرة ضخمة يتألق في قمتها غِلالة من ضوء يتراوح بين الأخضر والأزرق الباهتين، وتضيء المكان بنور شديد الخفوت يعطي المكان رهبة.**

**قال الكابتن (جود):**

**- هذا المكان أشبه بالحصن الحصين.**

**نظرت إلى الجبال المُحيطة وفي أرجاء الوادي تحت النور الباهت القادم من قمة صخرة الأرواح، وانتهيت بالمنفذ الوحيد الصغير الضيق، أجبته:**

**- وأنا أراه مصيدة لا فرار منها.**

**وضعنا أحمالنا، وشرعنا في ترتيب متاعنا والاطمئنان على حال السير (هنري)، وجعلنا ثلاثة حراس على منفذ الوادي، على أن نستبدلهم كل أربع ساعات.**

**أشرت إلى غِلالة الضوء في قمة الصخرة، سألت:**

**- من أين يأتي هذا الضوء؟**

**رأت (نومسا) إشارتي، وكأنها فهمت سؤالي، استدارت لتقابل الصخرة وجثت على ركبتيها، ووضعت كفيها متقاطعين على كتفيها، وأحنت رأسها وهي تتفوه بلغتها بكلمات، نقل إليَّ (آلان) معناها:**

**- أرواح الأجداد، تأتي من أرضها إلى أرضنا، تنقل إلينا الخير والبشائر.**

**لم يشغل أحدنا تفكيره بقولها، هناك حتمًا تفسير ما، تشاورنا فيما سنفعله، واتفقنا على أن تعود (نومسا) إلى بيتها، وتعود لنا بأخبار قومها، وأسرعت بالذهاب رافضة إصرارنا على أن تنال قسطًا من الراحة ثم تمضي.**

*** * ***

## 14- شبح الحقيقة

غربت شمس اليوم التالي ونحن ننتظر عودة (نومسا)، وأخذ القلق يدب فينا، ونحن نسرّي عن أنفسنا بأنها اختارت العودة ليلًا، كي لا تراها العيون.

حين أوغل الليل جاءنا اليقين بعدم عودة (نومسا)، يقين صنعته أصوات بنادق الحراس ومسدساتهم، وعشرات الرماح والسهام التي انهالت على الوادي.

وضعنا السير (هنري) خلف صخرة الأرواح، كي لا تصله الرماح، ثم سارعنا نحتمي بالصخور على جوانب المنفذ الضيق للوادي، لم يسمح المنفذ الضيق بوجود أكثر من أربعة رجال على جانبيه، اثنان واقفان والآخران جاثيان على ركبتيهما، وحرصنا على الإقتصاد في إطلاق بنادقنا ومسدساتنا، فلا نطلقها إلّا إذا حاول أحدهم الاقتراب، واستمر بنا الحال على هذا المنوال، إلى بعد منتصف الليل، حينها ارتفع صياح أحد المهاجمين بكلام، تبعه قول (آلان):

- يقول أنَّه يرغب في الحديث إلينا، وسيرسل إلينا أحدهم.

نظرت إلى الكابتن (جود)، قلت:

- لننظر ماذا يريدون؟

الكابتن (جود):

- هل تثق بهم؟

أجبته بسؤال:

- هل تملك شيئًا آخرًا؟

نظر إليَّ ثمّ إلى (آلان)، وأحنى رأسه قبل أن يرفعه ويشير إلى (آلان) الذي اقترب من المنفذ، ورفع صوته عاليًا يتحدث بلغة الزولو.

**اقترب أحد المحاربين من المنفذ حاملًا درعه ورمحه، وصاح به (آلان) أن يترك سلاحه ويتقدم بدونه، وأصر المحارب على حمل سلاحه، وأطلق (آلان) مسدسه في الهواء، ليتراجع المحارب ويعود سيل الرماح والسهام ينهمر علينا، وعاد (آلان) يصيح بلغة الزولو، ويطلب منهم أن يرسلوا رجلًا بلا سلاحه.**

**ساد الصمت بعد صياحه، ثم تقدم محارب بلا سلاح من المنفذ، وحين بلغ موضعنا، تأمل طويلًا في هيئتي وهيئة (آلان)، حيث ذهب الكثير من الدهن الأسود عنَّا، وظهرت له محاولتنا في التخفي، تكلم بلغته كلامًا نقله لنا (آلان):**

**- أين سيدكم كي أتحدث إليه؟**

**الكابتن (جود):**

**- جميعنا سادة وشركاء في أمرنا، تحدث.**

**المحارب:**

**- الملك (اجنوسى) يعرض عليكم العودة إلى دياركم، مع بعض كنوزنا دون التعرض لكم بشرط.**

**نظرنا إليه بانتظار أن يقول الشرط، فأردف المحارب بقوة:**

**- أن لا يعود معكم السير (هنري)، يحتفظ الملك (اجنوسى) بالسير (هنري).**

**أجابه الكابتن (جود) على الفور:**

**- هذا أمر مرفوض تمامًا.**

**نظر المحارب إلينا الواحد تلو الآخر، سأل:**

**- هل هذا رأي الجميع؟**

**الإيجاب الذي خرج منّا جميعًا في كلمة واحدة بصوت واحد أغنى المحارب عن انتظار الترجمة من (آلان)، فاستدار عائدًا لقومه، ليعود إلقاء الرماح والسهام من جديد.**

**في اليوم التالي استمرت المناوشات بيننا، وكنا في موقف لا نُحسد عليه، فقد أوشك الماء على النفاد، واستهلكنا جزءًا كبيرًا من ذخيرتنا، وأخذ تمرد الحراس يطفو على السطح بقوة وبشكل واضح، وقد ساهم العرض الذي قدمه لنا (اجنوسى) على زيادة جرأتهم، لقد جاء بهم السير (هنري) مقابل الحصول على كنوز جبال الملك سليمان، وقد جاءت الفرصة للحصول عليها، صحيح أنَّ الثمن هو التخلي عن السير (هنري)، ولكن من يبالي به؟ ليأخذوا ما جاءوا لأجله ويتركونه، وفي ظهيرة اليوم جاء عرض آخر.**

**المحارب:**

**- تنزلون في ضيافة الملك (اجنوسى)، لا تخالطون أحدًا من قومه، ولا يخالطونكم، وتبقون في ضيافته حتَّى غياب قمر هذا الشهر وظهور قمر الشهر التالي، فتعودون ومعكم هدايا وبعض من كنوزنا.**

**نظرنا إلى بعضنا وإلى الحراس الذين يسترقون السمع بالقرب منا، العرض بصورته الصريحة أن نكون أسرى لدي (اجنوسى)، إلى حين ذهاب الوقت المتاح لنا لرفع اللعنة، وذهاب كل ما فعلناه أدراج الرياح، فاللعنة ستصيبنا و"تُحصى العظام وتسعون إلى أرض الظلام وتبقون في أرض النور"، (اجنوسى) يعلم أنه لن يهنأ بالملك حتَّى غياب قمر الشهر العاشر، أي بعد عشرة أيام من الآن لن تكون هناك فائدة لكل ما فعلناه، وعلينا أن نواجه مصيرًا قد يكون الموت خيرًا منه.**

لم انتظر رأي الآخرين، وقلت:

- نقبل هذا الأمر.

- نقبل هذا الأمر!

هتف بها (آلان) وهو ينظر إليَّ بدهشة شاركه إياها الكابتن (جود)، وادرت رأسي إلى الأخير وطرفت له بعيني البعيدة عن مرأى الآخرين، وأنا أرجو أن يسايرني في الأمر، لم يخيّب رجائي، والتفت إلى (آلان) يقول:

- نقبل هذا الأمر.

بثقل نقل (آلان) ردنا إلى المحارب الذي أسرَّه الرد، وطلب جمع البنادق والمسدسات.

* * *

- أنَّهم مختلفون تمامًا عن المرَّة السابقة!

قالها الكابتن (جود)، ووافقته بقولي:

- هذا صحيح، البنادق والمسدسات لم تعد سحرًا، بل شيئًا مألوفًا.

آلان:

- لم تعد هناك مهابة لنا في قلوبهم، اختفى سحر "القادمون من النجوم" تمامًا.

قلت:

- لا شك أنَّ (اجنوسى) قد قام بعمل عظيم في فترة غيابنا عنه.

**كنا نسير في وسط محاربي قبيلة (كوكوانا) متجهين إلى العاصمة (لوو) وشمس العصر تضرب وجوهنا وتزعج أبصارنا، والحمالون يحملون السير (هنري) على محفته، ومن خلفنا الحراس، ووجد المحاربون في محاولتي أنا و(آلان) للتخفي بينهم، وسيلة للضحك والمرح.**

**آلان:**

**- لقد خدعتنا (نومسا).**

**قلت:**

**- كلَّا، رُبَّما أُجبرت على البوح بمكاننا.**

**الكابتن (جود):**

**- ما الذي يجعلك واثقًا؟**

**قلت:**

**- لا تملك شيئًا يجعلها تقف ضدنا.**

**آلان:**

**- الولاء للملك (اجنوسى)، أليس هذا كافيًا؟**

**أجبته:**

**- بلى، ليس كافيًا، حين تذكر حديثها عمّا فعله (اجنوسى) بعد ذهابنا، تدرك كم تكرهه وتكره ما فعله.**

**بدأت معالم (لوو) تظهر وهي بلدة كأي بلدة من بلدات الزولو ولكن أكبر حجما، حيث يبلغ محيطها قرابة خمسة أميال، وتقع في وسط سهل جميل واسع وعلى مقربة منها التل الشبيه بالهلال، حيث وقفنا في صف (اجنوسى) نحارب الملك (توالا) وجنوده، ومن وراء (لوو) على مسافة ستين ميلًا**

**تقريبًا تطل ثلاثة جبال غريبة الشكل والتكوين، جبال نعرفها خير المعرفة، جبال الملك سليمان.**

**بلغنا بوابة (لوو) الرئيسية، وفُتحت للمحاربين، وكم هذا غريب؟! المرَّة الأولى دخلناها ضيوفًا وسحرة قادمين من النجوم، وهذه المرَّة ندخلها أسرى مبغوضين.**

**سرنا مع المحاربين في الطريق الرئيس، وسط مئات من الصفوف، لم تختلف المدينة عن آخر مرَّة رأيناها فيها، ولكن هذه المرَّة لم نذهب لمكان إقامتنا السابق، بل إلى مكان بعيد منعزل واسع الأرجاء في وسطه عدة أكواخ بُنيت بأخشاب قوية متينة متقاربة، ووُضع كل أربعة منا في كوخ، ومن فضل الله علينا أنني والسير (هنري) و(آلان) والكابتن (جود) جمعنا كوخ واحد.**

*** 

**تحسس (آلان) جدران الكوخ في الظلام الدامس، حتَّى وجد لظهره متكئًا، سأل:**

**- والآن، ماذا سنفعل؟**

**أجابه الكابتن (جود):**

**- ننتظر قدوم الأمل.**

**عقّبت على قوله:**

**- بل قدوم الأملين.**

ساعدت الكابتن (جود) على وضع السير (هنري) في وضع مريح على محفته رغم الظلمة الشديدة، وشكرنا الأخير بصوت واهن، لا أعلم هل سينجو مما هو فيه أم لا؟ لقد تعرض للكثير، اللعنة أشد عليه من سواه، لقد توقف اشتدادها علينا جميعًا منذ بدئنا رحلتنا، ولكنها لم تنحسر، ثم تعرض هو للتسمم ثم هجوم الضباع ثم التسمم وطعنة من الخادم، ومشقة الطريق إلى صخرة الأرواح ثم إلى هنا، لقد أحسن الطبيب (إدوارد) العناية به، ولكن الطبيب ليس معنا الآن، أنه أسير في الكوخ المجاور.

همست لرفيقي بأن يقتربا مني، وحين شعرت بقربهما، همست:

- يجب أن نبحث عن وسيلة للفرار من هذا المكان.

آلان هامسًا:

- ألن ننتظر..

قاطعته:

- لا نعلم متى سيأتي، ولا أعلم هل السير (هنري) سيبقى حيًّا إلى وقت قريب أم لا.

الكابتن (جود):

- دعنا لا نبطئ، ماذا سنفعل؟

أجبته:

- سنحاول إزالة بعض أخشاب الكوخ ونخرج نبحـ..

قاطعني صوت جَلَبة من الخارج، وأضواء نيران تعبر بين أخشاب كوخنا، فهتف (آلان):

- ماذا يحدث؟

**قبل أن يجيبه أحدنا، فُتح باب الكوخ، ليدخل منه آخر رجل نتوقع قدومه، لقد كان القادم هو (اجنوسى)، بشحمه ولحمه.**

*** * ***

**كانت المشاعل بيد المحاربين المحيطين بـ (اجنوسى)، تضيء كل ركن من أركان كوخنا وتجعل الأشياء واضحة كأنَّها في شمس الأصيل، وفي ضوئها رأينا (اجنوسى)، بطوله البالغ ستة أقدام وثلاث بوصات، وجسده القوي ومنكبيه العريضين، وقد زين رأسه بريش أبيض، والماسة الملكية الضخمة على جبينه، وتدلت قلادة ذهبية من عنقه، وغطى جسده بدرع قوي، وأحاط وسطه بجلد أسد، لم تثر رؤيته دهشتنا بقدر رؤيتنا لـ (غاغول) عند قدميه، وهي أشبه بقرد بلا شعر وقد جففت الشمس جلده وامتلأ كله بالتجاعيد، ورأس خلا تمامًا من الشعر، ووجه ليس فيه من الملامح سوى فتحات العيون والفم، ووضعت عليها رداءً من الفرو، كيف نجت؟ لقد رأيناها بأم أعيننا صريعة تحت الباب الحجري؟**

*** * ***

**لم يلتقينا (اجنوسى) كأصدقاء وحلفاء، بل بدأ حديثه بلا تحية وبسؤالنا:**

**- ماذا جاء بكم؟**

**أعطيناه الجواب الذي أعددناه لهذا السؤال، جئنا لننعم بكرم ضيافته وصداقته لنا، والحصول على المزيد من كنوز جبال الملك سليمان، لم يبد عليه الاقتناع بجوابنا، وتقدم نحو السير (هنري) و(غاغول) بجواره، وتبادل السير (هنري) و(اجنوسى) النظرات بلا كلام في أضواء المشاعل، قبل أن ينحني على السير (هنري) ويزيح الغطاء عنه ليرى يديه العظمتين، بُهت بما رآه، ولم يتكلم برهة، ثم اعتدل وهو ينظر إلينا غاضبًا:**

**- لقد كذبتم، وصدقت العرَّافات.**

**علا صوت (غاغول) يقول في خضوع تام:**

**- إننا نخدم الملوك، ونريد لهم العمر المديد والسلطان العظيم، نفضح أعداءهم ونظهر كذبهم، ونبطل دسائسهم.**

**وانتزع (اجنوسى) خنجرًا من تحت درعه وانقضّ على السير (هنري)، ليجد يدي تمسك برسغه وتحول بينه وبين صدر السير (هنري)، لم أثق يومًا بـ (اجنوسى)، لم أحبه ولم أصدق روايته، وكنت أتوقع غدره وخيانته، وحرصت على رصد كل حركاته منذ دخل كوخنا هذا، وأخذ الحيطة والحذر من كل ما يصدر منه.**

**قلت:**

**- ليس الغدر ونكث العهود من شيم الملوك.**

**قلتها وعدة رماح تنغرس في أنحاء متفرقة من جسدي، ولم يحتج (اجنوسى) من يحيل كلماتي إلى لغة الزولو، فهو يعرف الإنجليزية، نظر إليَّ بحقد، فهو يعلم أنني لم أُخدع بأكاذيبه، بل حاولت فضحها، قال:**

**- لقد عدت معهم!**

**رددت:**

**- نحن جميعًا في نفس القارب.**

**قال:**

**- لقد صدقت في قولك، الملوك لا تخلف وعودها.**

**اعتدل وأفلت رسغه وأعاد خنجره لموضعه، وأشار لحرسه برفع رماحهم عن جسدي، ونظر إلينا، قال:**

**- الأمر كما وعدت، مع غياب قمر هذا الشهر، وبزوغ قمر الشهر الجديد، أسمح لكم بالمغادرة بلا رجعة.**

**وأكمل بعد لحظة صمت قصيرة:**

**- ومعكم بعض من كنوز جبال الملك سليمان.**

**نظرة اخيرة قبل أن يسير إلى باب الكوخ مع (غاغول) وخلفه حراسه، هنا قمت بمحاولة لعلها تجدي نفعًا في كشف غموض ما نحن فيه، صحت:**

**- اجنوسى.**

**التفت إليَّ، سألته:**

**- من أنت؟ أنت ليس ابن (ايموتو)، ابن (ايموتو) مات مع أمه في الصحراء.**

**المفاجأة ظهرت على وجه (اجنوسى) واختفت كلمح البصر، ليحل محلها الغضب الشديد، ويرد بصوت كهزيم الرعد:**

**- أنا (اجنوسى بن ايموتو) ملك مملكة (كوكوانا)، وحارس الطريق إلى جبال الملك سليمان، ومن ينكر هذا سأقتله بيدي.**

*** * ***

# 15- على أطراف (لوو)

لم اجادله، فقد نلت مرادي وعرفت الحقيقة أو اقتربت منها، حدجني بنظره قبل أن يستدير ويغادر كوخنا، ويُحكم الحراس إغلاق الباب ويسود الظلام.

جاءني صوت الكابتن (جود) يقول:

- سيِّد (حسَّان)، لقد أصبت كبد الحقيقة.

ثم صوت (آلان) يقول:

- كيف علمت بهذا؟

أجبته:

- هذا هو التفسير الوحيد لعدم أحقية (اجنوسى) في عرش (كوكوانا).

جاءتنا همهمة عالية من السير (هنري)، جعلتنا نتلمس في الظلام الطريق إليه، أحطنا به ولم نستطع أن نرى وجهه في الظلام، وبصوت واهن مُجهد سمعناه يقول:

- بعد ما قاله السَّيِّد (حسَّان) لـ (اجنوسى)، لن يتركنا هذا نرحل، سيقتلنا حتمًا قبل هذا.

ما قاله كان يقينًا يغمرنا جميعًا، (اجنوسى) سيقتلنا في جميع الأحوال، ولكنه رُبَّما سينتظر مغادرتنا مملكة (كوكوانا) قبل أن يغدر بنا، واستمعنا إلى السير (هنري) وهو يتابع بوهن:

- يجب أن نهرب الآن، يجب أن نجد لنا ملاذًا آمنًا، يجب أن يموت (اجنوسى).

وصمت ونحن نسمع أنفاسه تتردد في صدره، وأردف بحزم ذهب الوهن بأكثره:

**- لا يقتل أحدكم (اجنوسى)، أنا من يقتل (اجنوسى)، اعطوني عهدًا بأن لا يقتله سواي.**

**لا شك لدينا أن اللعنة لن تزول حتَّى يُقتل (اجنوسى) بيدي السير (هنري)، لماذا؟ لا نعلم، رُبَّما لأنه هو من قتل الملك (توالا) وأتى بـ (اجنوسى)! ولكن كيف؟ كيف يقتل السير (هنري) (اجنوسى)؟ حين نسترجع صورة (اجنوسى) وجسده القوي ونقارنه بحالة السير (هنري)، نجد هذا الأمر ضربًا من الخيَّال.**

**علا صوت السير (هنري) يقول:**

**- أعطوني عهدًا بذلك.**

**على مضض أعطيناه عهدًا لا نعلم أينا سيفي به، ودون أن نفارق مواضعنا قلت:**

**- سنبحث عن مخرج من هذا الكوخ، وسأخرج أنا مع (آلان)، ويبقى الكابتن لحماية السير (هنري).**

**الكابتن (جود):**

**- وماذا ستفعلان؟**

**أجبته:**

**- سنبحث عن (نومسا) و(غاغول).**

**قال (آلان) بدهشة:**

**- غاغول؟! لماذا؟**

**الكابتن (جود):**

- هي قوة (اجنوسى)، ورُبَّما هي من تعلم سرّه، ورُبَّما علمنا كيف نجت من الموت.

سمعنا صوت السير (هنري) الواهن يقول:

- ليست هي.

رغم الظلام استدارت رؤوسنا إلى حيث نظن موضع وجه السير (هنري)، وبصوت واحد قلنا:

- ليست هي؟!

أجابنا بوهن:

- نعم، ليست هي، لقد كانت قريبة مني ورأيتها بوضوح شديد، أنَّها تشبه (غاغول) كثيرًا، ولكنها ليست هي.

أثار جوابه دهشتنا وارتياحنا بمعرفة حقيقتها، وقطع علينا ما نحن فيه ضوء يدخل من بين أخشاب الكوخ ويكشف معالم ما بداخله، واسترقت النظر من بين الشقوق والأخشاب، لأجد العديد من المحاربين يقومون بإشعال عشرات المشاعل على حدود الساحة التي تتوسطها أكواخنا، لتضيئها وتجعل المكان نهارًا، لقد تحرك (اجنوسى) بسرعة، وخشي أن نفكر في الفرار، فأحبط علينا السبيل إلى ذلك، أُسقط في أيدينا، ولوهلة لم ندر ماذا نفعل؟

قال الكابتن (جود):

- سننتظر إلى ما بعد منتصف الليل أو ما قبل الفجر، حينها تقل حركة الحراس وينعسون جميعًا.

وافقناه الرأي، وانهمكنا في مراقبة المحاربين وتتبع حركاتهم، ومعرفة أوقات ذهابهم وإيابهم دون أن يشغلنا هذا عن محاولة خلخلة بعض الأخشاب

حتَّى يسهل رفعها وإعادتها، وقد اخترنا الجانب البعيد عن الأكواخ الأخرى، رغم ما في ذلك من خطر أعظم، فتلك الجهة ظاهرة للمحاربين في ذهابهم وإيابهم، فنحن لم ننس تمرد الحراس، وخشينا أن رأؤوا ما نفعله، بأن يسارعوا إلى كشف أمرنا، حتَّى لا تضيع منهم فرصة الحصول على الكنوز التي وعد بها (اجنوسى).

بعد منتصف الليل، أنجزنا العمل ولاحظنا قلة حركة المحاربين وعدم انتقالهم من مكان لآخر، واتخاذهم حلقات للحديث والسمر، كانت معضلة خروجنا هي بلوغ بوابة الساحة تحت نيران المشاعل، ووجود مجموعة من المحاربين عندها، بخلاف المجموعة الأخرى التي تقابلهم وتستقر خلف أكواخنا.

اتفقنا على الانتظار إلى ما قبل الفجر، حين ينام أكثر المحاربين، وتخبو نار المشاعل، وكان أكثر ما يشغلنا هو أين نبحث عن (نومسا)؟ (غاغول) حتمًا في كوخ (اجنوسى) أو قريبة منه، ولكن (نومسا)؟ بدونها لا فائدة لكل ما نفعله، فهي دليلنا للفرار في (لوو) وللعثور على مكان للاختباء.

اليقين بأنَّ الله معنا ويبارك ما نفعله لم يتزحزح، قد زاد مع قدوم الأمل الأوَّل، ونحن ننتظر قدوم ساعات الفجر، فوجئنا بصوت يهمس بأسمائنا من خلف أخشاب الكوخ، صوت نعرفه جيِّدًا، صوت (غوريب).

* * *

غوريب:

- سيِّد (آلان)، سيِّد (حسَّان)، السير (هنري)، الك..

**أسرعنا إليه، وهمس (آلان):**

**- غوريب، كم أنا سعيد بقدومك.**

**غوريب:**

**- وأنا كذلك يا سيِّد (آلان)، لقد أعددنا كل شيء لفراركم.**

**الكابتن (جود):**

**- ماذا عن المحاربين عند البوابة؟**

**غوريب:**

**- جميعهم نيام، سأبلغ الآخرين بالاستعداد للفرار.**

**هتفت:**

**- كلا، سنذهب نحن الآن، ونعود إليهم في وقت آخر.**

**غوريب:**

**- ماذا؟ هذا لا يصح يا سيِّد (حسَّان)، يجب إنقاذ الجميع.**

**الكابتن (جود):**

**- كلَّا، إنقاذهم سيؤدي لهلاك الجميع، سنعود إليهم فيما بعد.**

**لهُنيهة لم ينبس (غوريب) ببنت شفة وهو ينظر إلينا من بين الأخشاب والشقوق، ثم قال:**

**- حسنًا، أنتم أدرى بشؤونكم.**

**أشرنا إلى جدار الكوخ حيث اعددنا المكان ليكون فتحة فرارنا، وتعاونا مع (غوريب) على نزع أخشابه وأصوات محاربين اثنين من وراء الأكواخ يبلغان مسامعنا، وحملنا محفة السير (هنري) ونحن نصلي أن لا يكشف**

**الحراس فرارنا ولا يرانا أحد المحاربين، وعند البوابة رأيت المحاربين نيامًا، وتذكرت أمرًا مهمًا، همست:**

**- غوريب، نحتاج الطبيب (إدوارد)، لا يمكننا الذهاب بدونه.**

**رد عليّ وهو يشد الخطى:**

**- فيما بعد يا سيِّد (حسَّان)، فيما بعد سأعود له.**

**سرنا خلف (غوريب) في شوارع العاصمة (لوو) المظلمة والخالية من البشر، حتَّى بلغنا كوخًا في أقصى المدينة، ولجنا إليه لنجد في ضوء مصباحه الخافت (صموئيل) في انتظارنا، سُررنا به ووضعنا محفة السير (هنري)، والتفت إلى (غوريب)، سألته:**

**- هل نحن بأمان هنا؟**

**أجابني:**

**- آمل هذا.**

**أسرعت بالقول:**

**- غوريب، لا فائدة من كل ما فعلناه حتَّى الآن، قدومنا إلى هنا سيكون عملًا بلا طائل، بلا فائدة، يجب العثور على (نومسا).**

**(غوريب):**

**- نومسا! من (نومسا) هذه؟**

**صموئيل:**

**- المرأة التي كانت معنا، وقادتهم إلى صخرة الأرواح.**

**غوريب:**

**- ماذا عنها؟**

**الكابتن (جود):**

**- يجب العثور عليها، هي من تعرف أهل هذه المدينة، وتعلم من سيقف معنا وفي صفنا.**

**وأكملت عنه:**

**- لن نستطيع القيام بما جئنا لأجله من دونها.**

**آلان:**

**- يجب أن تعثر عليها، وسنجزل لكما العطاء.**

**أشار (صموئيل) بيده بما معناه أن لا داعي لذكر هذا الأمر الآن، وقال (غوريب):**

**- لا استطيع فعل شيء الآن، في النهار سأتقصّى أمرها، سأحاول الآن العودة وإنقاذ الطبيب إن استطعت ذلك.**

**خرج (غوريب)، وسأل الكابتن (جود) السائق (صموئيل):**

**- لمن هذا المكان؟**

**صموئيل:**

**- لحليف لكم.**

**نظرنا إليه في استغراب، وأكمل هو:**

**- بعد ذهابكم أسرى في يد الجند، وجدت مع (غوريب) رجلين يخرجان من وادي صخرة الأرواح، أحدهما يبكي وينتحب، والآخر يتحسر عليكم ويندب ذهاب الأمل في التخلص من الملك (اجنوسى)، وحين أظهرنا أنفسنا لهما خافا وفزعا، وبعد أن اطمأنّا وهدآ بالًا، طلبنا عونهما في إنقاذكم، وأكدنا لهما**

**قدرتكم في التخلص من الملك (اجنوسى)، خاصة في وجود أعوان لكم منهم، واحضرانا إلى هنا وأخبرانا أين يحبس (اجنوسى) أعداءه، وكان ما كان.**

**نظرنا إليه ولا نعلم ماذا نقول؟ لقد كانت رمية من غير رام، كانت توفيقًا إلهيًا، لقد أمسكنا بطرف خيط أعداء (اجنوسى)، هتفت مع الكابتن (جود) في صوت واحد:**

**- أين هما؟**

**نظر إلينا (صموئيل) بدهشة وأشار إلى ما وراء ظهره، وقال:**

**- لقد خرجا بعد مغيب الشمس، قالا إنهما سيعدان للأمر عدته.**

**لا يعلم (صموئيل) مقدار ما قدمه لنا من غير أن يعرف، لقد غسل اليأس من قلوبنا، وأعاد إليها الأمل، وقدم إلينا حلفاء نحتاجهم ونبحث عنهم، واختصر طريقًا طويلًا من الشك والخطر، لقد فعل أمر قد تعجز (نومسا) عن فعل نصفه، وتبقى مسألة وحيدة، لا يتم الأمر بدونها، من هو الملك الحقيقي الذي سيأخذ عرش مملكة (كوكوانا) من (اجنوسى)؟ هل سنجد عند حلفائنا جوابًا لهذا السؤال؟**

*** * ***

**قال (مبونغيني):**

**- منذ علمنا بقدومكم وتغير الأحوال بينكم وبين الملك (اجنوسى)، وإنقلاب الصداقة عداء، حتَّى سعينا إلى لقائكم لطلب عونكم في التخلص من (اجنوسى)، وسلكنا طريقًا غير معروف بين الجبال إلى صخرة الأرواح،**

**ونحن نأمل في الوصول إليكم قبل جنود الملك (اجنوسى)، ولكننا وصلنا متأخرين، وشاهدناكم تغادرون في صحبة الجند.**

**استمعنا إلى العجوز (مبونغيني) ونحن ننظر إلى وجهه النحيل وجسده الهزيل والشيب الذي كسا رأسه، وهو يجلس معنا في دائرة صغيرة في حفرة في الأرض، غُطت فتحتها بالقش، لتخفينا عن جند (اجنوسى) الذين يبحثون منذ الصباح عنّا في كل مكان، ولم يتركوا بيتًا إلّا ودخلوه يقلبون أثاثه وينظرون في كل ركن وزاوية، ولا حضيرة مواش إلّا وأخرجوا دوابها ونقبوا أرضها، ولا حجرًا إلّا وقلبوه، ولم تفتر همتهم إلّا بعد الظهر، حين اتجهوا للبحث عنّا في خارج العاصمة (لوو).**

**آلان:**

**- ماذا أصاب (اجنوسى)؟ كيف تغيرت أحواله؟**

**مبونغيني:**

**- لا أحد يعلم، بعد ذهابكم اتهم الجميع بأنهم هم من قتلوا أبيه وأمه وخذلوه، وأنه لولا القادمون من النجوم لكان طريدًا حتّى الآن، كان الملك (توالا) يطمع في ما عند أعدائه، فيقتلهم ويأخذه بمعونة الساحرات، أما (اجنوسى) فيرى في كل ما نملكه ملكًا له، وعمه (انفادوس) يعينه على ذلك بمعرفته أسرار أرضنا كلها.**

**سألته على لسان (آلان):**

**- لماذا لم تنصبوا ملكًا غيره؟**

**مبونغيني:**

**- لا بد من ملك شرعي له حق في العرش كي لا يتنافس الناس المُلك ويتناحرون عليه، ملك يقف الناس معه وينصرونه، حاول الكثيرون وكان الفشل والموت مصيرهم على يد (اجنوسى) وعمه (انفادوس)، وبمجيئكم تستطيعون أن تختاروا ملكًا شرعيًا كما جلبتم (اجنوسى)، وتجعلوا لملكه علامة يقبلها الجند والناس فيتبعونه ويتركون (اجنوسى) وعمه.**

**لا أعلم ماذا أقول له؟ أقول له لقد جلبتنا إليهم لعنة نريد الخلاص منها، وشرط الخلاص منها أن "يعود الملك الذي لا يعود" قبل غياب قمر الشهر العاشر، وكنا نأمل منهم ايجاد حل هذه المعضلة، فإذا بهم يريدون منا أن نجلب لهم ملكًا شرعيًا!**

**بلغ الوقت الأصيل، ثم غربت الشمس ولم يعد (غوريب)، وشعرنا بالقلق الشديد عليه، هل شعر به القوم؟ هل أصابه مكروه؟**

**غادرنا الحفرة إلى الكوخ الذي يبعد عنها بضعة ياردات، وتناولنا طعامًا لم يجعل له القلق والترقب مذاقًا، حين دخل علينا (جواني) شريك (مبونغيني)، وكان رجلًا طويلًا قويًا بخلاف (مبونغيني)، وحمل إلينا أخبار (اجنوسى) وعمه (انفادوس)، قال:**

**- إنهم يبحثون عنكم حول المدينة، في الجبال والتلال المُحيطة، ويظنون أنكم خرجتم إلى الطريق الآخر الذي يقود إلى الغابة الخضراء خارج مملكة (كوكوانا)، ولكن (اجنوسى) لا يقبل هذا ويقول أنكم في المدينة أو حولها.**

**بدأ الليل يوغل، ووجدنا أن لا فائدة من انتظار (غوريب)، ويجب علينا القيام بتدبير امورنا دون انتظاره.**

**نظرت إلى (جواني)، وسألته على لسان (آلان):**

**- هل تملكون أعوانًا في حاشية (اجنوسى)؟**

**أجابني (مبونغيني):**

**- نملك ولا نملك، بدون ملك شرعي ينزع العرش من (اجنوسى)، فلن يعرّض أحدهم نفسه للمهلكة.**

**مرَّة أخرى عدنا إلى ذات النقطة، الملك الشرعي صاحب الحق في العرش، من أين نأتي به؟ هذه هي المعضلة.**

*** * ***

## 16- الملك الذي لا يعود

كنت مدركًا أنَّ حل هذه المعضلة سيأتينا، لا أعلم كيف؟ ولكنه سيأتينا حتمًا، خلال رحلتنا إلى هنا، كانت هناك عشرات الدلائل والإمارات أنَّ الله يريد لنا أن نمضي إلى غايتنا، وتحقيق مرادنا، وأنه يسَّخر الأمور لصالحنا، وهذا ما كان، فعندما أوشك الليل على الانتصاف، وجدنا (غوريب) يقرع الباب، ويطلب عوننا في حمل أشياء معه، أشياء لم تكن سوى جسدين، جسد رجل لا نعرفه، والآخر لأمراة، وقد تعرضا لتعذيب شديد أخفى ملامحهما، حتَّى أننا أدركنا بعد حين أنَّ المرأة هي (نومسا).

قال (غوريب):

- وجدتهما في كوخ قرب كوخ الملك (اجنوسى)، وقد علمت بأمرهما من التنصَّت إلى أحاديث الحراس، واحتجت اليوم كله حتَّى استطعت إيجاد السبيل للفرار بهما.

أشرت للرجل، وسألت:

- من هذا؟

غوريب:

- لا أعلم، لم تقبل المرأة الفرار بدونه، فأحضرته معها.

جثوت على ركبتي بالقرب من (نومسا)، انتفخ وجهها واختفت ملامحه الجميلة تحت أثار الضرب والتعذيب، وظهرت الانتفاخات والجروح والسحجات على جسدها كله، ووجدت نفسي اهتف والدمع في عيني:

- أقسم أنني سأنتقم ممن فعل بك هذا.

**نقل إليها (آلان) كلماتي، وارتجفت شفتاها بكلمات لم تبلغني قبل أن تصمت، نظرت إلى (مبونغيني) بسؤال لم تنطقه شفتاي، أجابني على لسان (آلان):**

**- ستحيا، لكن يجب علينا الآن إعداد مكان للاختباء قبل قدوم النهار.**

**تعاونا جميعًا على عمل حفرة كبيرة ووضعنا فيها (نومسا) والرجل الآخر، وأخفيناها بالحشائش والقش ثم انضممت مع (مبونغيني) و(آلان) إليهما، وذهب الآخرون للحفرة السابقة مع السير (هنري).**

**في اليوم التالي بلغتنا الأخبار المُفجعة، لقد أصاب (اجنوسى) وعمه الجنون والسعار، حين علما بفرار (نومسا) والآخر، وقتلا جمعًا من حاشيتهما، وأحرقا بيوت من شكّا فيهم من الأهالي، وما فعلاه بالأمس كرراه اليوم بوحشية، حتَّى أنَّ من يبطئ من الأهالي في فتح بابه أو يشكون في أمره، كان يُحرق بيته وتُؤخذ بهائمه، ويُساق إلى السجن، وقد جعلوا عشرة سكاكين ومائة بقرة مكافأة لمن يدل على مكان (نومسا) والرجل أو مكاننا.**

**كان (جواني) ينقل لنا هذه الأخبار وهو يتظاهر بالعمل في أرضه بالقرب من مكان اختبائنا، ونستمع إليه وقد انشغلت مع (مبونغيني) في مداواة جروح (نومسا) والرجل الآخر الذي لا نعرف حقيقته حتَّى الآن.**

**وبخلاف المرَّة السابقة لم تنحسر عمليات البحث أو تنتقل إلى خارج العاصمة (لوو)، بل جاء الجنود ثلاث مرّات متتالية يبحثون في كوخ (جواني) وأرضه، واقتربوا مرتين من مكاننا، وكنا نتضرع إلى الله أن يعمي أبصارهم عنّا، وكنا نسمع أصواتهم وهم يتحدثون إلى (جواني).**

**ولم ننتقل إلى الكوخ بعد غروب الشمس، وهذا من حسن تدبيرنا للأمر، فقد جاء الجنود مرَّة أخرى على حين غفلة، وقاموا بتفتيش الكوخ وما حوله،**

**حتَّى وقفوا بالقرب منا، ونور مشاعلهم يتسلل من فجوات صغيرة في القش الذي يخفي حفرتنا، وأوشكت أنَّة من (نومسا) أن تفضح مكاننا لولا أنني سارعت بوضع يدي على شفتيها المُنتفختين، وقد سمعها أحدهم، وعلت أصواتهم فيما بينهم، وشرعوا في البحث حولهم قبل أن يبتعدوا عن موضعنا.**

**مبونغيني على لسان (آلان):**

**- لقد حسبوا الصوت من دواب الحقل.**

**في اليوم التالي استطاعت (نومسا) والرجل الكلام بهمس، وقال (آلان):**

**- لقد فضح الخادم أمرها، لقد رآها من مخبئه في ضوء القمر وهي عائدة معنا إلى مأوانا في الجبل، وأثناء عودتها من صخرة الأرواح، أمسك بها جنود (اجنوسى)، ولم تبح لهم بمكاننا، ولكنهم استطاعوا تتبع آثارها إلى صخرة الأرواح.**

**وأشار للرجل، قال:**

**- أما هذا فقصته غريبة للغاية، أنَّ (اجنوسى) يعذبه حتَّى يعترف بمكان (سكراجا).**

**سألته:**

**- سكراجا؟! من (سكراجا) هذا؟**

**أجابني (آلان) وهو يضع عينيه في عيني:**

**- سكراجا ابن الملك (توالا).**

**أصابتني الدهشة العظيمة، وهتفت:**

**- ابن الملك (توالا)؟! ألم يقتله السير (هنري) برمح في صدره؟!**

**استدار (آلان) إلى الرجل، وأخذ يتحدث إليه بضع دقائق قبل أن يلتفت إليَّ قائلًا:**

**- يقول إنَّ (سكراجا) نجا من الموت، وعلم (اجنوسى) بذلك من زلة لسان من الرجل، وهو يريد الوصول إلى (سكراجا).**

**سألت وأنا أعلم الإجابة:**

**- لماذا يريد (اجنوسى) الوصول إلى (سكراجا)؟**

**آلان:**

**- حتمًا ليقتله، أليس (سكراجا) هو الملك الشرعي لمملكة (كوكوانا) بعد أبيه؟**

*** * ***

**"ويعود الملك الذي لا يعود"**

*** * ***

**هل هذا هو تفسير كلام السحرة؟ هل يقصدون بعودة الملك الذي لا يعود هو عودة (سكراجا) الذي حسبناه ميتًا؟ الذي حسبناه لا يعود! هذا أمر يغيّر الكثير، هذا أمر يمكن تحقيقه.**

**سألت (آلان) بلهفة:**

**- أين (سكراجا) الآن؟**

**عاد (آلان) يتحدث مع الرجل ويعود إليَّ قائلًا:**

**- محال أن يبوح بمكانه، الموت أفضل من أن يخون ملكه.**

**أصابني الغضب، فهتفت:**

**- اخبره أنَّ (سكراجا) هو السبيل الوحيد للقضاء على (اجنوسى)، بدونه لن نستطيع فعل شيء.**

**والتفت إلى (مبونغيني) وقد استغربت صمته على هذا الامر، وقد جاءنا حل معضلتنا، فوجدته ساهمًا ينظر أمامه ولا يراه، أنتبه إلى نظرتي إليه، وتحدث بكلام نقله (آلان) إليَّ:**

**- سكراجا ابن ملك ويمكن أن يصير ملكًا شرعيًا، ولكن لا يمكن التخلص من (اجنوسى) إلَّا بإحدى طريقتين، أما أن ينتزع (سكراجا) العرش من(اجنوسى) بالقوة، أو يثبت بطلان حق (اجنوسى) في العرش، وفي كلتي الحالتين يحتاج (سكراجا) إلى القوة لتحقيق غايته.**

**قلت:**

**- ألم تقل إنكم تملكون أعوانًا في حاشية (اجنوسى)، وتملكون أنصارًا، ولكنكم تحتاجون ملكًا تلتفون حوله؟ وها قد جاء الملك.**

**أجابني:**

**- لقد جاء من يحق له أن يكون ملكًا، ولم يأت الملك، هناك فرق، وسنحاول أن نستغل هذا الأمر، ولكن الأمر الآخر سيُعطي نتائج أفضل بكثير.**

**قلت:**

**- أن نثبت بطلان حق (اجنوسى) في العرش؟**

**أجابني:**

**- نعم، هل يمكنكم إثبات هذا؟**

**ساد الصمت برهة بعد سؤاله، وأُستغرقت في أفكاري قبل ان ارفع إليه رأسي وأسأله على لسان (آلان):**

**- كم جنديًا تستطيع أن تجمع لأجل (سكراجا) في يومين؟**

**أجابني بسرعة:**

**- بضعة آلاف.**

**قلت:**

**- قم بهذا، بعد أن نقنع هذا الرجل بوجوب إخبارنا بمكان (سكراجا).**

**كان الرجل يعي ما نقول، ولكنه لم يتعاون معنا، وقد استغرقنا الليل كله حتَّى استطعنا إقناعه بضرورة إخبارنا بمكان (سكراجا)، ومع آخر الليل فطنت إلى غياب (غوريب) الطويل، لتأتي الأخبار في الصباح أنَّ (اجنوسى) أمسك به، بعد أن تعرَّف خادم السير (هنري) عليه.**

**الكابتن (جود):**

**- يجب أن نبحث لنا عن مكان آخر، قد يبوح لهم بمكاننا.**

**آلان:**

**- أين سنذهب؟**

**أجبته:**

**- إلى صخرة الأرواح.**

**والتفت إلى (مبونغيني)، قلت:**

**- سيكون ذلك مكان لقائنا، هناك سنلتقي (سكراجا) وهناك سيجتمع جنوده، وهناك سنحارب (اجنوسى) وجنده.**

**وانتحيت به جانبًا، وسألته أن يجلب لي عدة أشياء، أثار بعضها دهشته واستنكاره، ولكنني حرصت على إخباره بأهميتها، دون أن أخبره عن عملها.**

**وعدت إلى حيث الكابتن (جود)، وسألته عمّا يزعجه، أجابني:**

**- ولكن ذلك الوادي لا يصلح للقتال، أنه أشبه بمصيدة لا فكاك منها، سيكتفون بحصارنا حتَّى نهلك.**

**قلت:**

**- لم يعد كذلك، (مبونغيني) و(جواني) يعلمان طرقًا سرية تجعل حصارنا أمرًا مستحيلًا.**

**وطلبت من (صموئيل) أمرًا قد يكون محالًا، ولكنه وعدني بأنه سيبذل كل جهده لتحقيقه، وبدأنا نعد العدة للإنتقال إلى وادي الأرواح وكيفية التخفي عن أعين (اجنوسى) وجنوده، أوشكنا على الانتهاء من إعداد أشيائنا، حين جاءنا آخر شخص نتوقع رؤيته في هذه الحين.. لقد جاءنا (غوريب)..**

*** * ***

**غوريب:**

**- إنهم لا يعلمون أنني رجل مخضرم، وأعلم أسرار هذه الأرض وأهلها كما أعلم أسرار الإنجليز، وضعوني في كوخ في انتظار (اجنوسى)، وتسلقت عمود الكوخ إلى سطحه وقفزت من كوخ إلى كوخ حتَّى ابتعدت عن الجنود، وأسرعت إليكم.**

**اطمأنت أنفسنا برجوعه، وقررنا تأجيل ذهابنا إلى صخرة الأرواح إلى بعد غروب الشمس، وطلبنا من (مبونغيني) و(جواني) أن يُسارعا بما طلبناه منهما، وأخبرت (غوريب) بما أردته من (صموئيل)، فقال:**

**- لا شك أنهم يبحثون عنّا جميعًا الآن، لذلك لا نملك الآن سوى الاختفاء عن الأنظار إلى حين غياب الشمس، بعد الغروب سأذهب مع (صموئيل) ونجلب لك ما تريده.**

**عدنا نختبئ في الحفر في انتظار غروب الشمس، لا شك أنَّ القلق ينهشنا، فالأيام تنقضي بسرعة، وبعد بضعة أيام سيغيب قمر الشهر العاشر، ولن يعود لما نفعله أي فائدة، وستلازمنا اللعنة ما حيينا.**

*** * ***

**"تُحصى العظام وتسعون إلى أرض الظلام وتبقون في أرض النور"**

*** * ***

**أسرعنا الخطى في الظلام، يتقدمنا (جواني) وهو يقود ثورًا يحمل (نومسا)، ويقود الكابتن (جود) آخرًا يحمل الرجل، أما انا و(آلان) فكنا نحمل السير (هنري) على محفته، وعند الفجر بعد رحلة مرهقة، والتوقف كل حين للاستراحة أو الاختباء، بلغنا وادي صخرة الأرواح.**

**وفي الوادي ورغم حالة السير (هنري) السيئة، فقد اضطر (جواني) لحمله على كتفه، وحملت (نومسا) على كتفي رغم أنينها وتوجعها، وحمل (آلان) الرجل على كتفه، كانت حالة (نومسا) والرجل قد تحسنت وأصبح الحديث يسيرًا مع تحريك الكفين، اما سوى ذلك فلا يستطيعان.**

**من الوادي صعدنا ممرًا وعرًا لا يدركه من لا يعرفه، واستغرق صعودنا وقتًا حتَّى بدأ شعاع الشمس ينبس من الأفق، بلغنا موضعًا اتسع فيه الممر، حتَّى**

صنع دائرة كبيرة تظلها صخرة ناتئة من الجبل، وضع (جواني) حمله وأشار لنا بفعل مثله.

(جواني):

- سيكونون في مأمن في هذا المكان، وبعيدين عن الخطر، ولن يعيق مكانهم فرارنا إن احتجنا ذلك.

ازعجني ذكره أمر الفرار، فهذا يعني أنهم يضعونه ضمن حساباتهم، وقد يؤدي إلى عدم الاستبسال في القتال، ورُبَّما تغيير الخطط وتأجيل الأمر، ولم يكن هذا في صالحنا.

استأذن (جواني) في الذهاب لأسفل الوادي، ليحضر بعض الأشياء لتساعد المصابين على الرقاد، وذهبت معه وأحضرنا بعض المتاع والطعام والماء من على ظهور الثيران إلى حيث تركنا المصابين، وأبقينا الكابتن (جود) ليرعاهم رغم إصراره على مشاركتنا في قتال (اجنوسى) وجنوده، ونزلنا إلى أسفل الوادي الخالي من كل شيء باستثناء الثيران التي جئنا بها إلى هنا.

اتخذنا مواقعنا على جانبي الفتحة الضيقة للوادي ننظر للأرض المنبسطة أمامنا وقد امتلأت بالصخور على اختلاف احجامها، وعند الضحى ظهرت قافلة صغيرة عند الطرف الآخر تتحرك في اتجاهنا، اقتربت منّا وظهرت معالمها، رجلان يقودان ثلاثة ثيران، لم نكن نملك شيئًا نقاتل به سوى رماح.

اقتربت أكثر واتخذنا مواقعنا للدفاع، ولم نكن بحاجة لذلك، فالرجلان هما (صموئيل) و(غوريب)، هُرعنا إليهم وأمطرناهم بالأسئلة عن أحوال ما تركوه خلفهم.

قال (صموئيل):

**- لا زال القوم على حالهم، يبحثون في المدينة، وأرسل (اجنوسى) بعض الجند إلى الطرقات المؤدية إلى خارج المملكة.**

**أدخلنا القافلة إلى الوادي ونظر (غوريب) إليَّ معتذرًا، قال:**

**- لم نستطع إنجاز كل ما أوكلته إلينا.**

**أسرع (صموئيل) بالقول:**

**- ولكننا أنجزنا أكثره.**

**وأسرع إلى جِراب على ظهر أحد الثيران، أنزله برفق على الأرض وفك عقدته، لتثب منه (غاغول).**

*** * ***

**أخذت تتواثب كالقرد وتركض على يديها وقدميها هنا وهناك تحاول الفرار ونحن نغلق عليها الطريق، وحاصرناها في ركن وأمسكنا بها وهي تصرخ وتصيح، وأحضر (غوريب) سلسلة من الحديد، وضعتها حول عنقها وهي لا تكف عن الصياح وترفع سبابتها في تهديد واضح أمام وجوهنا.**

**قال (غوريب):**

**- إنها تمطر اللعنات علينا، وتريد أن تمسخنا قرودًا.**

**أشرت له بيدي أن لا يبالي بها، وطلبت من (آلان) ربطها إلى صخرة تمنعها من الفرار، في حين تعاون (صموئيل) و(غوريب) على إنزال جِراب آخر كبير، حين فُتح ظهر منه ما أثلج صدري، ظهرت بنادقنا ومسدساتنا التي أخذها جند (اجنوسى)، أسرعت استعيد بندقيتي ومسدسي، وتعاونت مع**

**السائقَين على حمل الجِراب إلى جانب الوادي على أن نحمله فيما بعد إلى حيث السير (هنري) والكابتن (جود).**

**نفض (صموئيل) كفيه ورفع نظره إليَّ، قال:**

**- بخصوص الأمر الأخير.**

**توقف وعاد ينفض يديه وأكمل:**

**- لم نستطع الوصول إليهم، (اجنوسى) أحاطهم بعدد ضخم من الحرّاس، وقد حاولنا عدة مرَّات، آخرها وقت الفجر، ولم ننجح حتَّى في الاقتراب منهم.**

**كان يتحدث عن الحراس والحمالين والطبيب (إدوارد)، ولقد رغبت في فك أسرهم، رُبَّما استطعنا إقناع الحرّاس بكذب (اجنوسى) وغدره، وأن النجاة في قتاله والانتصار عليه، فنحن بحاجة إلى كل من يستطيع القتال في صفنا.**

**بعد قليل ارتفع صوت (آلان) محذرًا، أسرعنا إلى منفذ الوادي لنرى مشهدًا مخيفًا لمئات المقاتلين وهم يتقدمون في الأرض المنبسطة نحونا من بين الصخور، ورغم عبثية ما نفعله، اتخذنا مواقعنا على جانبي المنفذ وقد حشونا بنادقنا وأعددنا مسدساتنا، وأعطينا (صموئيل) و(غوريب) من بنادق ومسدسات الحرّاس، فهما يجيدان استخدامها.**

**مرَّة أخرى لم نكن في حاجة لذلك، لقد كان القادمون (مبونغيني) ومقاتلون في صفه، رحبنا بالجميع ومد (مبونغيني) يده إليَّ بإناء نحاسي، قال:**

**- هذا ما طلبته.**

**أخذته منه شاكرًا، وسألته عن الآخَرين، فطلب مني التمهل لما بعد، ووقفت معه على منفذ الوادي نستقبل من قبَل القتال معنا، وكانوا يأتون وحْدانًا**

**وزرافات، وقبل غروب الشمس جاءنا الموعود، جاءنا الملك المُنتظر لمملكة (كوكوانا)، جاء (سكراجا).**

*** * ***

# 17- وادي صخرة الأرواح

لم يختلف (سكراجا) كثيرًا عن آخر مرَّة رأيناه فيها، وإن ازداد وجهه جهامة وقتامة وكبر عامًا، ولم تخف عليَّ نظرة الحقد التي ألقاها علينا أنا و(آلان)، وسارع (مبونغيني) بتقديم الملك الجديد إلى الجند، وأنا اتساءل كيف سيقبلونه؟ فهو ابن الملك (توالا)، وكلاهما صاحب صيت سيء لا يختلفان عن (اجنوسى) سوى في كم الظلم، وقعد الجند ووقف (مبونغيني) فيهم خطيبًا وإلى جواره (سكراجا) واقفًا، تحدث كثيرًا إلى بعد غروب الشمس بوقت طويل دون أن يقاطعه أحد، وهو يشير أحيانًا إلى (سكراجا) وأحيانًا إلينا وأحيانًا إلى (غاغول) المقيدة بعيدًا عند طرف الوادي، وقام (صموئيل) و(غوريب) بإخراج وإشعال بعض المصابيح الزيتية والمشاعل، وجعلوا بعضها بالقرب من (مبونغيني) الذي شارف على الانتهاء وظهرت إمارات الارتياح والسرور على الجند، قبل أن ينهضوا جميعًا، ويهتفون بالتحية الملكية لـ (سكراجا) وهم يشهرون رماحهم عاليًا:

- كوم.. كوم..

وسار إلينا (مبونغيني) في صحبة (سكراجا) والسرور على وجهه، ولم استطع منع نفسي من سؤاله على لسان (صموئيل):

- كيف أقنعتهم بالملك الجديد؟

ابتسم مُجيبًا على لسان (صموئيل):

- لم أكن في حاجة إلى إقناعهم، فهم يعرفون (سكراجا) جيدًا، وأنه ابن الملك (توالا) وصاحب الحق في العرش، المعضلة كانت إزالة الخوف من تكرار عهد الظلم.

**سأله (آلان):**

**- وكيف فعلت ذلك؟**

**أجاب (مبونغيني):**

**- بقول الحقيقة، لقد كان الملك (توالا) تحت سحر الساحرة (غاغول)، هي أعمت بصره عن رؤية الحقيقة وظلمه لقومه، وأنها هي من خدعتكم وجعلتكم تقفون في صف (اجنوسى) ضد الملك (توالا)، وأخبرتهم إنها لن تستطيع تكرار ذلك هذه المرَّة وأن مصيرها هو القتل أو النفي، وسيحكم الملك (سكراجا) قومه بالعدل.**

**قد لا يعلم (مبونغيني) كم نجح في عمله، ولكن نجاحه كان كبيرًا، فقد لاحظت اختفاء الحقد من نظرات (سكراجا) إلينا، ولكن لم يحل محلها شعور بالطمأنينة، اكتفينا بهذا منه، فأشد ما نحتاج إليه الآن التعاضد وليس التنافر، نظرت إلى (غوريب) و(صموئيل)، قلت:**

**- ائتيا بـ (غاغول).**

**وذهبت لمتاعي وأخرجت الآنية النحاسية، وجيء بـ (غاغول) وهي تحاول الفكاك والفرار ولا تكف عن الصراخ والتهديد، خاطبت (مبونغيني) على لسان (آلان) وأنا اعطيه الإناء:**

**- نريد رجلين من الجنود.**

**اخذ مني الإناء وهو في حيرة، وتحدث إلى (سكراجا) قبل أن يذهب ويعود بمحارِبَين قويين، وقلت لهما على لسان (غوريب) أن يدهنا قدمي (غاغول) بما في الإناء، للوهلة الأولى رفض المحاربان، وظهر عليهما الخوف ولكن تحت إصراري ومعونة (مبونغيني) و(سكراجا) أطاعا، وأخذا يدهنان وهي لا**

**تكف عن الصراخ والمقاومة ومحاولة رفسهما وخمشهما ولكن (صموئيل) و(غوريب) أحسنا الإمساك بها، فرغ المحاربين وانتزعت مشعلًا من موضعه وجثوت بالقرب من (غاغول)، كان (سكراجا) والآخرون يلتفون حولنا، ويرقبون ما نفعله باهتمام، وهم يجهلون غايتي، (غاغول) هي من كانت أكثرهم فطنة بما اريده بها، وضعت المشعل بالقرب من قدميها، وهي تنظر للمشعل برعب أخرص لسانها، سألتها على لسان (آلان):**

**- من هو (اجنوسى)؟**

**لم تنطق بكلمة وأبقت عينيها على المشعل، في حين نظر الآخرون إلى بعضهم، كررت السؤال بحزم وقوة، وقرّبت المشعل حتَّى أوشكت نيرانه المتطايرة أن تلمس قدميها، شدت ساقيها إلى صدرها وهي تصرخ:**

**- اجنوسى ملك مملكة (كوكوانا)، سينتقم منكم جميعًا، سيقتلكم جميعًا، كما قتل أعداءه، أنا (نومفانكولو) ربيبة (غاغول) وأمينة سرها ألعن القادمين من النجوم، ألعن من يصاحبهم، ألعن من يعاونهم، ألعن من يقف معهم، ألعن ذراريهم ومواشيهم وحقولهم، فليكونوا جميعًا منبوذين.**

**وجحظت عيناها وهي تفرد أصابع يدها اليمنى بقوة وتصرخ:**

**- ألعنكم جميعًا، كونوا أرواحًا ملعونة.**

**لم اكن أعلم قوة الساحرات في مجتمع (كوكوانا) إلّا حين ظهر الخوف من كلامها على الجميع حتَّى (سكراجا) نفسه، وخشيت أن يترك كلامها أثرًا فيهم ويفسد ما أعددناه، أدنيت المشعل من قدمها حتَّى دبت النار في الدهن على قدميها الهزيلتين وعلا صراخها ومعه علا صراخي:**

**- أرفعي لعناتك عن كل شيء، عن (سكراجا) وجنوده، عنّي وعن أصدقائي، ارفعي لعناتك عن مملكة (كوكوانا)، أعيدي لها العدل والخير، ابطلي كل سحر ولعنة حلت بأرض (كوكوانا).**

**لم أثق بسحرها رغم يقيني بوجوده ولا أبالي بلعناتها، ولكنني كنت اساير ما رسخ في أذهان شعب (كوكوانا)، كي لا تفسد خططنا، صرخت والرعب والألم في وجهها وصوتها:**

**- سأفعل، سأفعل.**

**أشرت لـ (آلان) فسارع بإطفاء النار بقطعة قماش، وصرخت و(آلان) يجاريني:**

**- لم ينته الألم بعد، بنار النجوم أحرقك، نار بلا نار، تحرق الأبدان، وتبلغ العظام، وترجين الموت فلا تموتين، حتَّى أقول كلمة الخلاص، وتصير النار ماءً، أرفعي لعناتك عن كل شيء، عن (سكراجا) وجنوده، عنّي وعن أصدقائي، ارفعي لعناتك عن مملكة (كوكوانا)، أعيدي ما حرمتيه منها، ابطلي كل سحر ولعنة حلت بأرض (كوكوانا)، هيا.**

**واتبعت صراخي بوضع المشعل قرب وجهها، لتتراجع في فزع وهي تصرخ:**

**- سأفعل، سأفعل، أنا (نومفانكولو) ربيبة (غاغول) وأمينة سرها أرفع لعناتي عن (كوكوانا) وأهلها وذراريهم وحقولهم ومواشيهم، أرفع لعناتي عن القادمين من النجوم ومن يرافقهم ويعاونهم، وعن (سكراجا) وجنده.**

**وأخذت تبكي وتنوح، ولم تأخذني بها شفقة، فصرخت:**

**- باركي جمعنا ومن يقف معنا، باركي (سكراجا) وجنوده، ألعني (اجنوسى) ومن يقف معه ويقاتل في صفه.**

**رغم الألم الشديد في وجهها ترددت، فأدنيت المشعل من ساقيها مرَّة أخرى، فقالت ما أردته، ورأيت بأم عيني الارتياح يظهر على (سكراجا) وجميع الحضور من شعب (كوكوانا)، وعدت إلى سؤالي الأول:**

**- من هو (اجنوسى)؟**

**صمتت برهة طويلة، قبل أن تقول:**

**- اجنوسى هو ابن (انفادوس)، (انفادوس) هو زوج (ليندويو) ربيبة أمنا العظيمة (غاغول).**

**ارتفعت آهات وشهقات الدهشة من حولنا، التفت إلى (سكراجا) والآخرين، قلت:**

**- هل سمعتم ما قالته؟**

**نقل إليهم (آلان) سؤالي، وأجابوا بصوت واحد قوي:**

**- سمعنا.**

**أشرت إلى (غوريب) إشارة عرفها، فأسرع إلي (نومفانكولو) وأخرج شيئًا نثره على ساقيها، ليسري الارتياح في وجهها، ثم اشرت لـ (صموئيل) و(جواني) أن يحملاها إلى حيث السير (هنري) ويحرصا على وثاقها وعدم فرارها، لا أريدها هنا كي تعود تثير الرعب والفزع في (سكراجا) والمحاربين وتمطرهم باللعنات من جديد.**

* * *

**أخذت (مبونغيني) جانبًا، وسألته مرَّة أخرى:**

**- لم تخبرني عن الأمرين الآخَرين؟**

**نظر إليَّ في وجوم اقلقني، قبل أنْ يجيبني:**

**- لقد أحضرتهما.**

**سرى الارتياح في وجداني وطفا على وجهي، وسألني:**

**- فيما تريدهما؟**

**أجبته:**

**- في حسم الحرب لصالحنا.**

**بدت الدهشة على وجهه، وقبل أن يسألني عن تفسير سألته:**

**- هل تعلم في قومك رجلًا يدين بالولاء إلى (اجنوسى)؟**

**مدهوشًا كرر متسائلًا:**

**- اجنوسى؟! لماذا؟**

**أجبته:**

**- كي يخبر (اجنوسى) بما نعده له.**

**ذهب الذهول بدهشته وهو يهتف:**

**- يُخبر (اجنوسى) بما نعده له! لماذا؟**

**لم أخبره أنَّ الغد هو اليوم الأخير من الشهر العاشر، ومع غياب شمسه يغيب كل أمل لنا في الخلاص من اللعنة التي أصابتنا، ولهذا يجب أن نستعجل الأحداث، وبدلًا من هذا أخبرته أمورًا أخرى من خطتنا، وأكدت له بضرورة أن يصل (اجنوسى) ما قالته (نومفانكولو) عن حقيقته، وأنْ يتم إبلاغه بذلك عند الفجر، لا قبل ذلك ولا بعده، حتَّى نملك الوقت الكافي لإعداد أنفسنا ورص الصفوف مع ظهور نهار اليوم التالي.**

**توجهت مع (آلان) و(جواني) إلى حيث السير (هنري)، ومررنا في طريقنا بـ (نومفانكولو) وهو ترقد مُرهقة مُنهكة، وبلغنا رفقتنا ليسألنا السير (هنري) بصوت ضعيف واهن عن الأحوال، وأجبته كاذبًا:**

**- لقد أعددنا كل شيء، وجاء (سكراجا) ومعه جنوده، وعددهم كاف لهزيمة (اجنوسى) وجيشه.**

**لم يزد عدد الجنود الذين جمعهم (مبونغيني) و(جواني) لأجل (سكراجا) عن ألف جندي، وهو عدد قليل هزيل لا يكفي لهزيمة (اجنوسى)، بل يستطيع (اجنوسى) حصار الوادي حتَّى نستسلم أو نموت جوعًا وعطشًا.**

**بوهن ذكَّرني السير (هنري):**

**- غدًا هو اليوم الأخير لنا.**

**طمأنته وأخذت الكابتن (جود) جانبًا وشرحت له حقيقة الأمر، وقدم الكابتن حلّا عسكريًا، فقد اقترح أن نفتح منفذ الوادي أمام جيش (اجنوسى)، وحين دخول عدد محدد، نُغلق المنفذ وينقض (سكراجا) وجنوده عليهم ونكرر ذلك حتَّى القضاء على (اجنوسى) وجيشه، ولم أكن اراهن في حساباتي على المعركة بين الجيشين، (اجنوسى) خاض معنا معركة التل ضد الملك (توالا) وقد استخدمنا خطة مشابهة لهذه مع اختلاف المكان، وسيدرك خطتنا فورًا، ورُبَّما يكتفي بحصارنا فقط، وهذا في صالحه وليس صالحنا.**

*** * ***

**وكان جل ما أخشاه هو أن ينتبه (اجنوسى) إلى أمر بسيط حين يأتيه خبرنا، أن يكتفي بالبقاء في العاصمة (لوو)، وينتظر غياب شمس اليوم الأخير، فلا يعد لما نفعله قيمة، باستثناء القضاء على الملك المنافس وهذا أمر يستطيع فعله بصبر وهدوء، لذلك حرصت على أن يبلغه أمر افتضاح حقيقته على يد (نومفانكولو) لعله يسرع إلى قتالنا.**

**اطمأننت على (نومسا) والرجل الآخر، وقد تحسنت حالهما وإن لم يستطيعا النهوض، وكانت (نومسا) ترغب في الانتقام من (اجنوسى) لما فعله بها، وكررت وعدي لها بالانتقام منه، مما جعل ابتسامة شاحبة تطل على وجهها الممتلئ بالكدمات والسحجات، لم أكن يومًا رجلًا يركض خلف النساء، ولم أكن يومًا رجلًا يقبل ايذائهن، وما فعلوه بها أثار غضبي من القسوة في إيذاء هذا البشر الضعيف، ولم تحب هي (سكراجا) فهو أوشك على قتل أختها (فولاتا) لولا إنقاذنا لها أنا والكابتن (جود) قبل أن تلقى مصرعها على يد الساحرة (غاغول)، في حين أصرَّ الرجل على لقاء (سكراجا)، ولكنني طلبت منه التمهل إلى الغد حتَّى يكون هو أفضل حالًا، وأخبرته أنَّ (سكراجا) مشغول بإعداد الجيش لمعركة الغد.**

*** 

# 18- الجيشان

فرغت من صلاة الفجر، وصحبت معي (آلان)، ونزلنا إلى الوادي، لنجد (سكراجا) وجنوده يعدون أنفسهم للمعركة القادمة، بحثت عن (مبونغيني) حتَّى وجدته، انتحيت به جانبًا، وسألته على لسان (آلان) عما طلبته منه، فأجابني بأسف:

- لم أفعله، استشرت (جواني) والملك (سكراجا)، نحن لم نكمل جمع المحاربين، لا يزال الكثير منهم لم يصله خبرنا، وهم مستعدون لمؤازرتنا والقتال معنا، حين ننهي جمع المحاربين ونُكمل الاستعداد للمعركة سنفعل ما طلبته.

أصابني قوله بالدهشة والغضب، وصحت:

- لم تفعله، لقد أفسدتم كل شيء.

عقّب مدهوشًا:

- أفسدنا كل شيء! كيف؟

أجبته غاضبًا:

- نعم، أفسدتم كل شيء، ما ستجمعونه من المحاربين لن يكفوا لهزيمة (اجنوسى) وجيشه، يستطيع (اجنوسى) حصارنا في هذا الوادي حتَّى نهلك بدون قتال.

ذُهل من جوابي، وهتف:

- لن نهزم (اجنوسى)! لم فعلنا كل ما فعلناه؟

أجبته بغيظ:

- كي نهزم (اجنوسى) بجيشه هو.

**لم يفهم هو ولا (آلان) شيئًا مما قلته، هتفا:**

**- ماذا؟ كيف؟**

**أجبتهما والغيظ والأسف يقطر مع كلماتي:**

**- لو اطاعني هذا لعلمتما كيف.**

**أخذ (مبونغيني) يتلفت حوله، ثم نظر إليَّ مغمومًا، قال على لسان (آلان):**

**- أوضح لنا ما تخطط له، لعلنا نستطيع إصلاح الأمر.**

**قلت:**

**- إن أردت إصلاح الأمر، فأرسل رجلًا لـ(اجنوسى)، واحرص أن يصل إليه في أسرع وقت.**

**مبونغيني:**

**- لأقنع الآخرين، يجب أن أعلم ما تنويه أو تخطط له.**

**قلت:**

**- أفعل ما طلبته منك، ثم أحضر من تثق فيهم إلى موضع السير (هنري) لأخبركم بما أخطط له.**

**أسرع (مبونغيني) إلى حيث (سكراجا)، وعدت أنا مع (آلان) آسفًا أصعد إلى حيث السير (هنري)، لقد فشلت خطتي تمامًا، لم تشرق الشمس بعد، ولكن وهجها ظاهر في الأفق، فهل سيكفي الوقت لإرسال أحد ما لإخبار (اجنوسى) بأمرنا، تحتاج الطريق إلى العاصمة (لوو) قرابة نصف نهار أو أقل قليلًا، وسيحتاج (اجنوسى) بضع ساعات كي يعد جيشه، ثم يأتي إلينا، وحين يبلغ موضعنا تكون الشمس قد غابت، ومعها قمر الشهر العاشر والأخير.**

**لا تأتي المصائب فُرادى، في طريقنا لم نجد الساحرة (نومفانكولو) في موضعها، لقد فرَّت من المكان، كيف فكَّت وثاقها؟ كيف استطاعت الفرار بقدميها العاجزتين؟ أسرعت إلى (صموئيل) و(غوريب) وكانا جالسَين يتحدثان، أخبرتهما بفرار (نومفانكولو) فهُرعا إلى مكانها يتقصيان آثارها، وأسرعت أنا برفقة (آلان) إلى (جواني)، وأحضرته معي إليهما، لمعرفته بالطرق والمخابئ السرّية حول الوادي، ليلحق بنا (مبونغيني) و(سكراجا) ورجلان آخران، وأصابهم الخوف حين علموا بفرار الساحرة، ولكنني طمأنتهم أنها لم تبتعد كثيرًا، ولا تستطيع، وسيمسك بها (جواني) والسائقان.**

**ودون أن يترك (مبونغيني) الخوف والقلق، قال:**

**- لقد أحضرت الملك (سكراجا) والآخرين لتخبرهم بما عندك.**

**نظرت إلى (آلان)، سألته:**

**- هل فعل ما طلبته منك؟**

**جاءني الجواب على لسان (آلان):**

**- لقد فعل.**

**صحبتهم إلى حيث السير (هنري) والآخرين، وهناك شرحت لهم خطتي كاملة على مسمع الجميع، ليسود بعدها صمتًا طويلًا، قطعه (مبونغيني):**

**- سيِّد (حسَّان)، أنت تجعلني والملك (سكراجا) والساحرة (نومفانكولو) عماد خطتك.**

**هززت رأسي بالإيجاب، ونظر هو إلى (سكراجا) والآخرين، وقال:**

**- وجود الملك (سكراجا) سيبدو للمحاربين والناس ملك ينازع آخر على العرش، الناس لم تنس ظلم الملك (توالا) وابنه (سكراجا)، والساحرة**

**(نومفانكولو) فرّت وكنت تجعل منها جزءًا مهمًا من خطتك، ولا يبقى لديك سواي.**

**قلت:**

**- أنت تكفي، إذا قمت بدورك كما يجب، وفعلت ما فعلته مع جنود الملك (سكراجا).**

**مبونغيني:**

**- وهل سيستمعون إليَّ؟**

**أجبته:**

**- إذا فعلت ما أطلبه منك، سيستمعون إليك بآذان صاغية.**

**نظر (مبونغيني) إلى (آلان) وتحدث بكلام نقله لي (آلان) :**

**- سيِّد (حسَّان)، أنت تطلب منّي أمرًا تأباه نفسي، وفيه خديعة لقومي.**

**قلت :**

**- مبونغيني، أنت تفعله لأجل نفسك وقومك، ليس غايته الضرر بل إنقاذ مملكة (كوكوانا)، وسيبقى هذا الأمر سرًّا بيننا لا يعلمه سوانا.**

**نظر إلى قومه، وتحدث إليهم، وعلمت مما نقله إليَّ (آلان)، أن الشك يراودهم فيما أقوله، وأنّهم يفضلون الحرب والقتال ويرون أنَّ خطة الكابتن (جود) لا بأس بها.**

**عرضت عليهم أن تكون خطتي هي البديل حين فشل خطة الكابتن (جود)، ووافقوا وأنا على يقين من فشل خطة الكابتن (جود)، ليس لأنني أتمنى هذا، بل لأنني أدرك مكر ودهاء (اجنوسى) وأبيه (انفادوس)، وحتمًا سيدركان ما نفعله.**

**عاد (مبونغيني) وقومه لأسفل الوادي، وبقيت أنا مع رفقتي، وقد وضعت خطة بديلة احتفظت بها لنفسي، لن نستطيع إحضار (اجنوسى) قبل غروب الشمس، سأذهب أنا إلى (اجنوسى) وسأنهي أمره قبل غروب الشمس، ولكنني في حاجة إلى مساعدة (غوريب) و(صموئيل).**

**انتظرت عودة الاثنين، وقد عادا برفقة (جواني) ويحمل (صموئيل) الساحرة (نومفانكولو) على كتفه وهي تصرخ وتعوي.**

**قال (غوريب):**

**- وجدناها مختبئة في حفرة خارج الوادي.**

**صموئيل:**

**- لولا ما أصاب قدميها لابتعدت كثيرًا.**

**تأكدت من شد وثاقها وضمان عدم فرارها مرَّة أخرى، وأخبرت (جواني) بما اتفق عليه قومه، وبمعزل عنه أخبرت (صموئيل) و(غوريب) بخطتي.**

**قال (غوريب):**

**- سيِّد (حسَّان)، ليس (اجنوسى) كالساحرة (نومفانكولو)، أنَّه رجل قوي وحوله محاربون أشداء، لن يسهل علينا الوصول إليه واختطافه.**

**قلت:**

**- سأكون معكم.**

**صموئيل:**

**- لن يصنع ذلك فارقًا كبيرًا، وأن جاء معنا كل من في الوادي.**

**كنت أعلم أنهما على حق، وحقيقة ما أسعى إليه أن أبلغ موضعًا قريبًا من (اجنوسى)، موضع أكون قادرًا على قتل (اجنوسى) منه ثم الفرار، رُبَّما يُبطل**

**هذا اللعنة، رغم يقيننا جميعًا أنَّ من شروط الخلاص منها أن يُقتل (اجنوسى) بيدي السير (هنري)، وهل يستطيع السير (هنري) قتل (اجنوسى)؟ الرجل بالكاد يستطيع إلتقاط أنفاسه، السمّ وطعنة الخادم والرحلة الشاقة نالوا منه، واللعنة تنال منه أكثر منّا جميعًا، منذ بدء رحلتنا، أصبحت آثار اللعنة أقل كثيرًا ولكنها لم تتوقف.**

**لم أجد بُدًّا من إخبار (صموئيل) و(غوريب) بحقيقة ما انتويه، واستمع الاثنان إليَّ بانتباه تبعه وجوم وجهيهما، قبل أنْ يقول (غوريب) بكلمات بطيئة:**

**- تقتل (اجنوسى) ثُمّ تفر؟**

**أجبته:**

**- هذا ما أنتويه.**

**نظر (صموئيل) إلى (غوريب) وهو يقول:**

**- تقتل (اجنوسى)! رُبَّما تنجح في ذلك، أن تفر من المكان فهذا مُحال.**

**قلت له:**

**- دع أمر فراري جانبًا، هل تستطيعان مساعدتي في أن أكون في موضع قريب من (اجنوسى)؟**

**غوريب وهو ينظر إليَّ:**

**- رُبَّما نستطيع ذلك، ولكن هناك أمر يجب أن تعلمه.**

**أصخت إليه دون أن أسأله، وجاءني ما يريد قوله على لسان (صموئيل):**

**- سنساعدك في بلوغ الموضع الذي تريد، ولكننا لن نبقى معك، سنترك المكان فورًا.**

قبلت هذا منهما وهبطت في صحبتهما إلى الوادي، لأجد الجنود في لغط وجلبة، وعلمنا منهم أنَّ (اجنوسى) غادر العاصمة (لوو) في جيش عظيم لا تُعلم وجهتهم، بحثت عن (مبونغيني) حتَّى وجدته بعسر شديد، سألته عن الأمر و(صموئيل) ينقل الحديث بيننا، فنظر إليَّ بوجوم، وأجابني:

- أنَّهم قادمون إلى هنا.

دُهشت من جوابه، وسألته:

- كيف بلغهم الأمر بهذه السرعة، الطريق يحتاج قرابة نصف نهار.

لم يفارق وجهه وجهي ونظرة غريبة على وجهه وهو يجيبني:

- هذا ما تحتاجه القوافل، لقد أرسلت رجلًا يقطع الطريق في ساعتين أو أقل.

لا يعلم كم أبهجني قوله، وسألته:

- متى سيصلون إلى هنا؟

أجابني:

- رُبَّما وقت العصر أو قبل الغروب.

أطاح جوابه بالكثير من بهجتي، لن يترك لنا هذا وقتًا، وسأحتاج حتمًا خطتي البديلة، رغم هذا انتحيت به جانبًا وأوضحت له كيف سيفعل المطلوب منه.

سألني:

- ولكننا اتفقنا على خطة صديقك الكابتن (جود).

قلت له:

- سنقوم بخطة الكابتن (جود).

ثم قررت إخباره بما آراه، أردفت:

- ولا أظن أنها ستنجح.

**فوجئ بقولي، وقال:**

**- لا تظنها ستنجح! لماذا؟**

**سردت له مبرراتي، ورُبَّما أقتنع بما أقوله، فقد أخذ يساعدني في الإعداد للأمر دون أن يسأل أكثر، بحثنا إلى أن وجدنا مكانًا مرتفعًا ومتواريًا يعلو منفذ الوادي وقريبًا منه، اعددنا المكان لما ننتويه، وكانت المعضلة هي إحضار الساحرة (نومفانكولو) إلى المكان دون يراها أحد، وقام (آلان) برفقة (مبونغيني) بتكميمها ووضعها في متاع وإحضارها للمكان دون أن يشعر بها أحد، لم ينقصنا سوى وجود (سكراجا) لإتمام ما نفعله، ولكننا قررنا بقاءه مع المحاربين إلى حين تنفيذ ما ننتويه.**

**مع اقتراب حلول وقت العصر، بدأ (اجنوسى) وجيشه يتدفقون إلى الأرض المنبسطة أمام الوادي، ويعتلون الصخور، وكما فرحت بقدومهم فقد آثار قدومهم المبكر دهشتي، يبدو أنَّ (اجنوسى) يخشى افتضاح أمره وأمر أبيه، ويريد القضاء علينا بسرعة، فقد بدأ الهجوم علينا فورًا، واندفع جنوده إلى منفذ الوادي، وسارعنا إلى تنفيذ خطة الكابتن (جود)، فأخلينا المنفذ من المحاربين، وتركنا بعضهم على جانبي المنفذ، والعدد الأكبر منهم عند الطرف البعيد المقابل للمنفذ بقيادة (سكراجا)، كنا نرغب بدخول أكبر عدد يمكن أن يسعه الوادي ويسمح لنا بالإطباق عليه وتحقيق انتصار سهل سريع، وكان جيش (اجنوسى) يعبر المنفذ ويتجه نحو الطرف البعيد حيث ينتظرهم (سكراجا) ومحاربوه، وبعد حين ارتفع صراخ الكابتن (جود) يطلب من المحاربين إغلاق المنفذ، ليطبق المحاربون من كل جانب على كل من دخل**

**الوادي من جيش (اجنوسى)، وبدأ الجميع قتالًا شرسًا جعلني اتساءل عما وعد به (اجنوسى) جنده كي يقاتلوا بهذه الشراسة.**

**كنت مع (آلان) و(مبونغيني) و(جواني) و(صموئيل) و(غوريب) في مكاننا الذي أعددناه نراقب المعركة ونواصل الإعداد لتنفيذ خطتي، وربطنا الساحرة (نومفانكولو) إلى قمة عمود طويل، وقمنا بوضع الدهن على العمود وكل جسد الساحرة التي أخذت تقاوم وتصرخ بصوت مكتوم، والرعب يطل من عينيها وعلى محياها، قلت لها على لسان (غوريب):**

**- إن تنفذين ما أقوله لك، فلن يصيبك سوء، إذا عصيتني فالموت حرقًا سيكون مصيرك.**

**هزَّت رأسها بقوة تقبل ما أقوله، وتعاونت مع (صموئيل) و(غوريب) على تثبيت الشيء الآخر الذي جلبه (مبونغيني)، ولم يبق من أمرنا سوى حلول اللحظة المناسبة ومجيء (سكراجا).**

**لم يكن (اجنوسى) بالأحمق الساذج، كل ما فعله وأبوه يخبر أنهما من أهل الدهاء والمكر والخديعة، في الوقت الذي انشغل فيه (سكراجا) ومحاربوه بقتال من دخل الوادي من جيش (اجنوسى)، كانت هناك أعداد كبيرة من جيش الأخير تقتحم الوادي من طرق سرية في الوادي، وتحيط بـ (سكراجا) ومحاربيه، وانقلب السحر على الساحر.**

**ارتبكت صفوف محاربي (سكراجا)، ولم يعودوا يعلمون من أين يأتيهم العدو، وهتفت من مكاني:**

**- من أين يأتون؟**

**أشار (مبونغيني) إلى الوادي، ونقل إليَّ (صموئيل) كلامه:**

**- من هناك وهناك وهناك.**

**كان يشير إلى منافذ ضيقة بين الصخور على حدود الوادي، منافذ لا تسمح بمرور أكثر من محارب في المرَّة الواحدة، وبالكاد ينتبه لها محاربي (سكراجا) في غمار المعركة، وخشيت أن يعبروا الممر حيث السير (هنري) ومن معه، لكن (جواني) طمأنني:**

**- الممر يؤدي إلى قمة الجبل، وهم يسلكون الممرات المؤدية إلى الوادي.**

**لوهلة لم أعرف ماذا أفعل، لا نستطيع استخدام بنادقنا كي لا يفتضح مكاننا، ولا نستطيع تجاهل ما يحدث، ثم قررت اصطحاب (آلان) و(جواني) والنزول إلى الوادي، وأراد (مبونغيني) مرافقتنا، ولكنني رفضت ذلك، فهو أهم ما في خطتي وعليه يعتمد نجاحها، والمعضلة الكبرى في خطتي هي اختيار الوقت الملائم لتنفيذها، أوصيت (صموئيل) و(غوريب) بالبقاء مع (مبونغيني) ومعاونته في مهمته.**

**نزلنا إلى الوادي حيث المعمعة، واستطاع (جواني) أن يجمع بعض المحاربين، ويصحبهم معنا إلى الثغرة الأولى التي يتسلل منها جند (اجنوسى)، وبمعونة (جواني) والمحاربين ومسدسي ومسدس (آلان) استطعنا وقف تدفق الجنود من الثغرة وإغلاقها ووضع بعض المحاربين لحراستها، ولم يكن هذا بالأمر الشاق، فهي لا تسمح بمرور أكثر من فرد واحد في المرَّة الواحدة، وانطلقنا للثغرة الثانية والثالثة وكررنا ما فعلناه في الأولى، وأخذنا نشارك في القضاء على من تسلل من الثغرات ونحن نشق طريقنا عائدين إلى موضعنا، لنجد (مبونغيني) وعليه علامات السرور والارتياح لما فعلناه.**

## 19- سقوط (اجنوسى)

تجاوزت الشمس وقت العصر وبدأت تسرع للغروب حين بدأ (سكراجا) ومحاربوه في حسم المعركة ضد جند (اجنوسى)، وقُتل أكثرهم ووقع بعضهم في الأسر، وكنت في هذا الوقت أشاهد (اجنوسى) مع جنده من موضعي باستخدام المِرقاب، وقررت استخدام بندقيتي للقضاء عليه، حين فطنت أنَّ هذا هو الوقت المناسب لتنفيذ خطتي، (اجنوسى) وأبوه وجنده من حوله يتدارسون الأمر، ورأيت خادم السير (هنري) قريبًا منهم، سيبقى أَمر هذا الخادم سرًّا لا نعرفه، هل أرسله (اجنوسى) للتجسس على السير وقتله ورُبَّما القضاء علينا جميعًا؟ وكيف استطاع أن يصير خادمًا للسير (هنري)؟ هل هي مصادفة أم أمر تم إعداده؟ تلاشت أصوات المعركة وخفتت أصوات المحاربين، وانهمك (سكراجا) ومن معه في ترتيب صفوفهم.

التفت إلى (مبونغيني)، وعلى لسان (آلان) قلت له:

- مبونغيني، حان الوقت.

و أسرعت مع (صموئيل) إلى الدرع النحاسي المثبت، وبمطرقتين ضخمتين أخذنا نطرقه، وصوته الهائل يدوي في الوادي والأرض الفسيحة ويرتد كألف ألف جرس، حتَّى أوشك صوته أن يذهب برؤوسنا، ورؤوس الجميع تلتفت إلى مصدر الصوت، توقفنا وأشرت لـ (جواني) بإحضار (سكراجا) وإلى (مبونغيني) أن يبدأ بتنفيذ ما أخبرته به، تناول حزمتين واقترب من حافة مكاننا حتَّى صار ظاهرًا لـ (اجنوسى) وجنده، وبأعلى صوته صاح:

- يا محاربي (كوكوانا) العظام، رجال من رجال، هذا أنا (مبونغيني)، (مبونغيني) الرجل الذي لا يكذب، اللعنة على الكاذب فينا، ملعون هو، ملعون

أهله، ملعونة ذريته، ملعونة ماشيته، يا محاربي (كوكوانا)، أتدرون ماذا أحمل في يدي؟

كنت أرى بالمِرقاب عيون (اجنوسى) وجنده شاخصة إليه لا تطرف، و(مبونغيني) يواصل صياحه:

- هذه عظام زوجة الملك (ايموتو)، ماتت في الصحراء، ألقي إليكم عظامها، فلا تسقط منكم ولا تنكسر، أنها عظام زوجة ملككم العادل (ايموتو).

وألقى بالحزمة إلى الجند وسارع بعضهم بإلتقاطها قبل أن تصل الأرض، وقاموا بفتح الحزمة وتعالت أصواتهم، في حين تابع (مبونغيني) وهو يرفع بيده حزمة أخرى:

- أتعلمون ما الذي بيدي؟ إنها عظام ابنها (اجنوسى) الذي مات معها في الصحراء، ألقي إليكم عظامه، فلا تسقط منكم ولا تنكسر، أنها عظام ابن ملككم العادل (ايموتو).

وألقى بالحزمة الثانية ليتكرر ما حدث في المرَّة الأولى، وهنا ارتفع صوت (انفادوس) من بين الجنود يكذِّب ما قاله (مبونغيني)، ليبدأ الجزء الثاني من خطتي، في اللحظة التي وصلنا فيها (سكراجا) و(جواني)، أسرعت إلى الساحرة (نومفانكولو) المقيدة على العمود ورفعت عن فمها ما يكممه وهتفت فيها على لسان (غوريب):

- إن تكذبي ولا تقولين الحقيقة أشعل النار في جسدك.

صاحت:

- لن أكذب، لن أكذب.

وتعاونت مع (غوريب) و(صموئيل) على رفع العمود وعلى قمته الساحرة، لتبدو ظاهرة للجند، وقد جذب المنظر انتباههم، صاحت (نومفانكولو) بأعلى ما تستطيع:

- يا محاربي (كوكوانا)، لقد خدعكم (اجنوسى)، إنه ليس ملككم، أنه ليس ملكًا، أنَّه ابن (انفادوس) زوج (ليندیوي) ربيبة أمنا العظيمة (غاغـ..

ولم تكمل (نومفانكولو) كلامها، لم تكمله لأنَّ رمحًا اخترق صدرها، رمح رماه بها (اجنوسى)، ليخرصها ويمنعها من إكمال كلامها.

وتبقى إرادة الله غالبة، لقد أراد (اجنوسى) أن يمنع الساحرة (نومفانكولو) من فضح أمره وأمر أبيه، فجاء فعله تأكيدًا لما قالته، وكانت صيحات الدهشة تتعالى من الجنود لما سمعوه من الساحرة، لتنقطع بمقتلها وتلتفت الأعناق إلى (اجنوسى) في غضب، وأثبت (مبونغيني) مرَّة أخرى أنه خير من يقوم بهذا الدور المُراد منه، أمسك ذراع (سكراجا) ورفعها عاليًا وهو يهتف بكل قوته:

- يا محاربي (كوكوانا)، هذا هو ملككم، ملك مملكة (كوكوانا)، (سكراجا) ابن الملك (توالا)، لقد ذهب عنه سحر (غاغول)، السحر الذي يجعل الظلم عدلًا، وعاد يقودكم من جديد، تحميه أرواح الأجداد من كل سحر وساحر، عاد يحكم بالعدل، ويقهر الظلم، فأعلنوا الولاء لملككم العائد من أرض الأجداد.

ارتفعت أصوات الجند من الأسفل بالتحية الملكية:

- كوم.. كوم..

**ومن نافلة القول أنَّ هناك معركة صغيرة حدثت بين الجيش الذي انقلب أغلبه على (اجنوسى) وفئة قليلة وقفت مع (اجنوسى) للنهاية، معركة انتهت بهزيمتهم وفرار (انفادوس) والخادم وأسر (اجنوسى).**

**وقفنا جميعًا إلى جوار الملك (سكراجا) ومحاربي (كوكوانا) من حولنا، وأقصد بالجميع أنا و(آلان) والكابتن (جود) و(صموئيل) و(غوريب) و(مبونغيني) و(جواني)، وبخصوص السير (هنري) و(نومسا) والرجل الآخر فقد كانوا حضورًا على محفاتهم.**

**وفي موضعنا عند منفذ الوادي في الطرف المقابل للأرض المنبسطة، كنّا ننظر إلى (اجنوسى) الواقف أمامنا مهزومًا مدحورًا، وعيني تسترق النظر إلى الشمس التي غاص جزءها السفلي في الأفق البعيد، ورفع (اجنوسى) رأسه وشرع ينظر في وجوهنا الواحد تلو الآخر، قبل أن يتوقف على وجهي ويقول:**

**- الملك (سكراجا)، أنت تعلم قوانين مملكة (كوكوانا)، ومن حقي كملك أن أموت وأنا أحارب.**

**زجره (مبونغيني):**

**- لست ملكًا لتطلب هذا الحق.**

**حدجه (اجنوسى) بطرفه، وقال:**

**- لا تحشر نفسك بين الملوك، الملك (سكراجا)، لقد كنت ملكًا لمملكة (كوكوانا) لعشرة أقمار كاملة، وأطلب حق الملوك حسب أعراف مملكة (كوكوانا).**

**رفع (سكراجا) يده ليمنع اعتراضات الآخرين، سأل:**

**- من تريد أن تقاتله؟**

**كأنَّه ينتظر هذا السؤال، أشار (اجنوسى) بسبابته نحوي وقال:**

**- هذا.**

**وقبل أن يعترض أحد، هتفت:**

**- أنا أقبل.**

**نظرت إليَّ العيون في دهشة تجاهلتها تمامًا، ومددت يدي أطلب بلطة، لقد عشت حياتي تاجرًا، ولكن قلبي يعشق المغامرة ومصاحبة الخطر، لهذا أبحث عن أشياء لتجارتي في أرجاء الأرض البعيدة والغامضة، وخضت عدة معارك صغيرة، فلا السلاح ولا القتال غريبان عنِّي، لهذا جئت لأرض الناتال، وصحبت السير (هنري) ومن معه في رحلتهم الأولى، وعدت معهم مرَّة أخرى إلى هنا.**

**التقطت البلطة بيميني وأدرتها ببراعة لتستقر على كتفي الأيمن وسط دهشة رفقتي، وتقدمت إلى وسط حلقة واسعة صنعت الأجساد حدودها، والتقط (اجنوسى) بلطة بدوره وتقدم ليقف أمامي على بعد خطوات، قال بالإنجليزية التي يعرفها:**

**- لقد أفسدت كل شيء أيُّها العربي.**

**رددت عليه:**

**- بل أصلحت كل شيء.**

**اجنوسى:**

**- ستندم على رجوعك إلى هنا، موتك هو عزائي عن كل ما خسرته.**

**قلت:**

**- لا تستعجل شيئًا لن تدركه.**

**لم يتحدث أكثر وانقض عليَّ ببلطته، انحرفت عن طريقه لتطيش ضربته، وحان دوري لأنقض عليه، ليتلقى ضربتي بطرف بلطته، وببراعة أدار طرفها يريد أن يضرب بها وجهي، تراجعت بسرعة ومزق طرفها قميصي عند الصدر، وهتف (اجنوسى) مسرورًا:**

**- لقد بدأنا.**

**لم أهتم بقوله، وهويت ببلطتي أريد رأسه، ليتصدى لها ببلطته، وترتفع قدمي بركلة قويّة تحت إبطه، ليندفع إلى الوراء ولكنه لم يسقط، وأسرعت لأضربه، فجثا على ركبتيه لتمر ضربتي فوق رأسه، وشعرت بألم حاد في جانب صدري الأيسر،، ووثب هو واقفًا، وانقض يريد الإجهاز علي، وانحرفت عن طريقه رغم ضربته القوية التي أدمت جانب صدري، وركلته في خاصرته ليسقط أرضًا على جانبه، وهويت عليه ببلطتي، فتدحرج على جانبه مبتعدًا، ولكن طرف بلطتي مزّق خاصرته وجعل الدم ينزف منها، استمر الكر والفر بيننا، وقد أصبته في خاصرته وصدره وفخذه، وأصابني في كتفي وجانب صدري وفخذي، وحانت مني التفاتة إلى الشمس لأجد قد غاب ثلثاها في الأفق، التفاتة استغلها (اجنوسى) لتغوص بلطته في عظام صدري اليُمنى وتلقي بي أرضًا، ورأيته يطلق صرخة عظيمة ويهوي ببلطته بكل قوته على صدري مرَّة أخرى لتكون القاضية، وبكل ما لدي من قوة ملت بصدري جانبًا عن ضربته وسمعتها تغوص عميقًا في الأرض بجانبي، عدت لموضعي وأمسكت ببلطته لأمنعه من انتزاعها، وبكل ما أملك من قوة ضربته بقدمي على خاصرته قريبًا من الجرح، ليتأوه ولم يترك بلطته، وضربته مرَّة أخرى**

**في نفس الموضع بقوة، ليترك بلطته ويندفع للوراء، ونهضت بقدر ما استطيع والألم الشديد ينبض في صدري والدماء تغرق جانبي الأمامي كله، وحاول هو أن يستعيد بلطته المغروزة في الأرض، ولكنني ركلتها بقدمي لتسقط بعيدًا عن يده، وكأنني أرفع جبلًا، رفعت بلطتي وهويت بها على كتفه، ليسقط أرضًا، وتوالت ضرباتي عليه وهو يحاول الفرار والمراوغة، ووجدت نفسي أهتف:**

**- هذه لخداعك لنا، هذه لما فعلته بشعب (كوكوانا)..**

**ونظرت إلى (نومسا) وهتفت باسمها:**

**- نومسا، هذه لأجلك.**

**وهويت ببلطتي على (اجنوسى) بضربة منعته من الحراك، لم تفهم (نومسا) ما قلته، ولكنها أدركت مغزاه من فعلي، وقفت مترنحًا، وناديت:**

**- أحضروا السير (هنري) إلى هنا.**

**أسرع (صموئيل) و(غوريب) بحمل المحفة وإحضارها إلى حيث أقف، وبكل عزيمة وجهد أملكهما رفعت الغطاء عن جسد السير (هنري)، وعاونني (صموئيل) و(غوريب) على إجلاسه بالقرب من جسد (اجنوسى) الذي تتردد أنفاسه في صدره بقوة، وعدت للمحفة وأخرجت منها البلطة التي قتل بها السير (هنري) الملك (توالا)، وعدت إلى حيث السير (هنري)، وأبديت ذراعيه العظميتين لتتعالى صيحات الدهشة ممن حولي، لم يكن هناك من يعلم ما أفعله وما أنتويه، وفككت الحبل الشبيه بالنطاق عن خاصرتي، ووضعت البلطة بين ساعدي السير (هنري) وشددت عليها بالحبل مع ساعديه، ونظرت في عينيه، لأجد الدمع يترقرق فيهما ونظرة امتنان، وقال بوهن:**

**- أشكرك، أتمنى أن تغفر لي عدم أخذ حديثك عن (اجنوسى) بجدية.**

**ربت على كتفه، قلت:**

**- دع هذا لما بعد، أنت تعلم ما ستفعله؟**

**هزَّ رأسه بالإيجاب، وعدلت موضعه ليقابل عنق (اجنوسى) ووقفت جانبًا مترنحًا، وانتظرت برهة ولم يفعل السير (هنري) شيئًا، اقتربت منه بعسر لأجد دموع القهر تجري من عينيه على خديه ويقول بهمس:**

**- لا استطيع، لا أملك القوة لرفع البلطة.**

**قلت:**

**- بل تستطيع.**

**وأمسكت البلطة المربوطة إلى ساعديه ورفعتها إلى فوق رأسه، قلت:**

**- أفعلها.**

**وتراجعت للخلف بوهن، لوهلة سكنت البلطة في موضعها، قبل أن تسقط خلفه، تحاملت على نفسي واقتربت منه، ليأتيني صوته قويًا يزجرني:**

**- لا تساعدني.**

**تراجعت وأنا انظر إلى الشمس التي اختفت وراء الأفق ولم يبق منها سوى وهج بلون ثمرة البرتقال الناضجة، لا أعلم هل فات الوقت أم لا يزال هناك أمل؟ ونظرت إلى السير (هنري)، ووجدته ساكنًا في موضعه، اقتربت منه فإذا صرخة عظيمة تنطلق منه وترتفع البلطة بقوة وتهوي على عنق (اجنوسى) وتجتثه اجتثاثًا.**

خيم الصمت على المكان ولم ينبس أحد ببنت شفة، لبرهة لم يتحرك أحد عن موضعه، حتَّى السير (هنري) بقي في موضعه ووجهه على الأرض في هيئته الأخيرة، اقتربت منه وجثوت على ركبتي ووضعت يدي على كتفه.

* * *

خيّم الصمت علينا إلى أن قطعه السير (هنري):

- أنت تعلم أنني لن أعود معكم.

التفت إليه مدهوشًا، سألته:

- ماذا تعني، هل ستبقى في مملكة (كوكوانا)؟

أثارت إجابته الرجفة في أوصالي وهو يقول:

- ويعود الملك الذي لا يعود، ويسير من أرسله إلى أرض الظلام إلى أرض الظلام.

* * *

كان السير (هنري) جثة هامدة، تحاملت على نفسي ونهضت ملتفتًا إلى (سكراجا) ومن حوله، قلت:

- لقد مات السير (هنري).

* * *

## 20- الخاتمة

**هذا آخر ما وعيته قبل أن أسقط فاقدًا للوعي، وما أكتبه الآن هو ما عرفته من (آلان) والكابتن (جود)، وهما يصفان العودة إلى العاصمة (لوو) بالحزينة، ومحاربي قبيلة (كوكوانا) يحملون جثمان كل من سقط في المعركة، بعد قرار (سكراجا) بالعفو عن كل من قاتل مع (اجنوسى) باعتبارهم مُغرر بهم، كما حملوا جثمان السير (هنري) بالإضافة إلى جسدي و(نومسا) والرجل الآخر، وعند منتصف الليل بلغنا مدخل العاصمة (لوو)، ووجدنا أهل المدينة خرجوا من بيوتهم يحملون المشاعل في إيديهم وينتظرون العائدين.**

**في الصباح أُطلق صراح الحمالين والحراس والطهاة، وأمر الملك (سكراجا) بإيعاز من (مبونغيني) و(جواني) بدفن السير (هنري) في مقبرة ملوك مملكة (كوكوانا)، ولكن (آلان) والكابتن (جود) أصرّا على دفنه حسب التعاليم المسيحية، وخرجت من (لوو) في الصباح مسيرتان، الكبيرة تحمل جثمان السير (هنري) وقتلى قبيلة (كوكوانا)، حيث دُفنوا في مقبرة المحاربين، وقد جُعل قبر السير (هنري) في موضع مميز، ووضع الكابتن (جود) على القبر صليبًا كبيرًا صنعه من فروع الأشجار، أما المسيرة الصغيرة فانطلقت تحملني فاقد الوعي وتحمل (نومسا) والرجل الآخر، واتجهت صوب الطريق العظيم المؤدي إلى جبال الملك سليمان، وسارت عليه حتَّى بلغت سفح الجبل الأوسط، وبدأت بتسلق الجبل حتَّى بلغت الفجوة التي تقود إلى مناجم الماس، تجاوزتها ومرّت بالصامتين وهي تماثيل ضخمة لرجلين تتوسطهما امرأة، تمثال الرجل الأيمن وجهه أشبه بالشيطان والأيسر وجه قاسي الملامح، أما**

**المرأة فاختفت معالم وجهها ولم يبق منه سوى الشكل العام، واصلت المسيرة طريقها الوعر حتَّى بلغت حائطًا صخريًا ضخمًا في وسطه باب على هيئة دائرة، تعاون عدة رجال على دفع الباب لتبدو قاعة كبيرة كأن جدرانها من الثلج، وضعونا فيها وخرجوا بعد أن تعاونوا على إغلاق الباب، ولا أذكر شيئًا عن تلك القاعة سوى الحمى الشديدة التي أصابتني، والبرودة القارصة ووجه (نومسا) وهو يطل عليَّ ويختفي، ولم يكن هذا إلَّا أوهامًا وخيالات، وفي المساء أخرجنا من جاءوا بنا وعادوا بنا إلى العاصمة (لوو) وأَمضيت الليل لا أعي من الدنيا شيء، وفي الصباح نهضت من فراشي لا أشكو شيئًا، وخرجت من الكوخ، لأجد (آلان) والكابتن (جود) و(صموئيل) و(غوريب) ومعهم بعض حرس السير (هنري)، نظر الجميع إليَّ في دهشة شديدة، قبل أن يثبوا من مجالسهم نحوي، هتف (آلان):**

**- سيِّد (حسَّان)، لقد صحوت.**

**الكابتن (جود):**

**- إنك تبدو بخير حال، كأن لم يصبك سوء قط.**

**آلان:**

**- يا إلهي، سيِّد (حسَّان)، جرحك.**

**نظرت إلى حيث يشير بذهول عارم، ومن الفتحة الواسعة في قميصي الغارق في دمائي، رأيت الجرح في صدري حيث غاصت بلطة (اجنوسى) قد اختفى، ولم يبق منه سوى أثر في سمك خيط رفيع، نظرت إلى الجرح في دهشة لا تقل عنهم، وانتقلت إلى الجرح الآخر في جانب صدري فوجدته كالأول، أخذت انظر ذاهلًا إلى جراحي، ولا أعلم تفسيرًا لما حدث لها.**

**الكابتن (جود):**

**- هذه معجزة.**

**أثارت كلمته شيئًا في وجداني، جعلني أكشف عن ساقي، لأجدها كما هي، لم تذهب اللعنة عنّي، هل تأخرنا في تصحيح الأمور؟ هل تأخر السير (هنري) في القضاء على (اجنوسى)؟ هل غربت الشمس قبل مقتل (اجنوسى)؟**

**سارع (آلان) والكابتن (جود) إلى الكشف عن ساقيهما، لم يتغير شيء، أخذنا ننظر لبعضنا بدون كلام، والحراس يتبادلون عبارات الدهشة مما رأوه.**

**قلت:**

**- لم يتغير شيء!**

**لم يجبني أحدهم، وقال الكابتن (جود) بعد برهة:**

**- رُبَّما تحتاج بعض الوقت.**

**آلان:**

**- الحقيقة أنني أفضل حالًا من قبل، رُبَّما لم تختف ولكن الألم والوخز لم يعد لهما وجود.**

**ما يقوله حقيقة، ولكن علامة زوال اللعنة هي زوال آثارها، قاطعنا وصول رسول من الملك (سكراجا)، يقول إنَّ الملك يرغب في لقائنا، سرنا معه في شوارع (لوو) حتَّى بلغنا كوخ الملك الواسع، وهناك وجدنا (سكراجا) جالساً على عرش ضخم وماسة الملوك الكبيرة تزين جبينه، كما وجدنا (مبونغيني) و(جواني) و(نومسا) وإلى جوارها رجل عجوز، وقد تعافت (نومسا) تمامًا، بل أنها تبدو أصغر سنًا.**

**و (آلان) ينقل لنا الحديث، شكرنا (سكراجا) نيابة عنه وعن وقبيلة (كوكوانا)، وقال أنهم يغفرون لنا مساعدتنا لـ (اجنوسى)، فقد خدعانا هو وأبوه كما خدعا الجميع، وأن تصاريف القدر جرت ليزول السحر عنه وعن قبيلة (كوكوانا) وقد أمر بقتل جميع الساحرات، وتطهير المملكة من شرورهن، وختم حديثه:**

**- ولا أجد لكم مكافأة على ما بذلتموه من جهد سوى هذه المكافأة الصغيرة.**

**وأشار بيده ليدخل عدد من الرجال، وكل منهم يحمل سلة صغيرة، وضعوا السلال أمامنا، لنجدها ممتلئة بأحجار لا تخفى طبيعتها عنا، أحجار من الماس، إذا كانت هذه هي المكافأة الصغيرة، فماذا عن الكبيرة؟**

**قال الملك (سكراجا):**

**- وأمرت بمثلها لكل من رافقكم إلى هنا، ولم أنس نصيب السير (هنري).**

**شكرنا الملك على كرمه العظيم، ولا أدري هل يعلم سبب عودتنا إلى أرضه أم حسبنا أننا جئنا للحصول على المزيد من كنوز جبال الملك سليمان؟**

**بدأنا في مغادرة الكوخ والرجال يحملون السلال لنا، وسمعت (مبونغيني) ينادي باسمي، التفت إليه لأجده يشير إليَّ كما يشير إلى (آلان)، عدنا إلى حيث كنا، وغادر الباقون، قال (سكراجا) على لسان (آلان):**

**- إنَّ هذا الرجل يرغب أن يعطيك ابنته، لتقوم بخدمتك ورعايتك.**

**أصابتني الدهشة لما سمعته، وقلت:**

**- أشكر الملك (سكراجا)، والرجل وابنته على هذه العطية العظيمة، وأرجو أن يسمحوا لي برفض هذه العطية، فلا أحتاج لمن يرعاني.**

**لم أعلم حجم الإهانة التي تسببت فيها كلماتي، وأنا أظن أنني أقدم معروفًا لـ (نومسا) وأبيها، حتَّى رأيت وجه أبيها يكفهر، ووجه (نومسا) يمتقع، والغضب يظهر على وجه الملك (سكراجا)، ودار حديث طويل بين (سكراجا) و(آلان)، يبدو واضحًا فيه (آلان) وهو يبرر رفضي، والتفت (آلان) إليَّ، قال:**

**- لقد أهنت الملك والفتاة وأبيها وشعبهم إهانة عظيمة، إنهم يحسبون رفضك عيبًا في الفتاة ونساء القبيلة.**

**قلت:**

**- لم أقصد شيئًا من هذا، أنا لا أحتاج من يخدمني ويرعاني.**

**آلان:**

**- الملك يرى أن إهانتك لا تغتفر، إما تأخذ هذه الفتاة أو يحضر لك فتاة أخرى لخدمتك.**

**قلت:**

**- ولكنني لم أقصد الإهانة ولا أرغب في من يرعاني.**

**كنت اقتربت من الثلاثين عامًا، وأرى العالم واسعًا وأرغب أن أراه وأطوف في أرجاءه، ولم أفكر حتَّى هذه اللحظة في الزواج ولا أن يصحبني من يعيق ترحالي.**

**اقترب (مبونغيني) منّا، وتحدث إلى (آلان)، قبل أن يلتفت إليَّ الأخير، وقال:**

**- يجب أن تقبل عطيتهم، وتأخذ هذه الفتاة، برفضك لها تكون الفتاة قد جلبت العار على نساء قبيلة (كوكوانا)، وسيكون الموت مصيرها.**

**لا أعلم ماذا أرد، لم أقبل ان تمتد لها يد بالأذى، فكيف أقبل أن أكون سببًا في موتها؟!**

أعلنت قبولي عطية الملك وأبي الفتاة، ليحل السرور على وجه الملك وتنبسط أسارير الفتاة وأبيها، وسارعت لتقف بجواري، وأنا لا أعلم كيفية الفكاك من هذا الأمر؟

نظر (مبونغيني) في عيني، وقال على لسان (آلان) :

- لقد طلبت منّي الكذب بخصوص العظام، ولقد كذبت ولست نادمًا على هذا، ولكنني أطلب منكم وعدًا أن لا يعلم بهذا سوانا.

لم يكن في حاجة لتذكيرنا بهذا، ولكنني أعطيته وعدًا، ولم استطع منع نفسي من سؤاله :

- عظام مَن هي؟

ظهر الحزن على وجهه وهو يجيبني :

- عظام زوجة ابني وابنها الصغير.

ساد صمت حزين برهة بيننا، قطعه الملك (سكراجا) :

- سيِّد (حسَّان)، هل راقت لك هديتنا الأخرى؟

دُهشت من السؤال، وتساءلت :

- هدية أخرى؟

مبونغيني :

- الملك (سكراجا) يقصد مداواة جراحك.

هتفت:

- رائعة، أعجز عن شكركم، كيف فعلتم هذا؟

ابتسم الملك (سكراجا) ، قال :

- هذا سر من أسرار جبال الملك سليمان.

**وابتسم (مبونغيني) وهو يقول :**

**- وشفاء جراحك جانب من السرّ، حين تصير شيخًا ستدرك الجانب الآخر.**

*** * ***

**في مساء اليوم التالي وصل (غوريب) و(صموئيل) وهما يقودان عربة الخيول وعربات الثيران بعد أن استعادا جميع أشيائنا التي أخفيناها في أحد جبلي (صدر شيبا)، وكان أول شيء فعلته هو استبدال ملابسي المتسخة الممزقة والملوثة بالدماء بملابس أخرى نظيفة.**

**ومع أول شعاع شمس اليوم التالي كانت قافلتنا تغادر العاصمة (لوو) وقبيلة (كوكوانا) وفي مقدمتها الملك (سكراجا) يقفون لوداعنا على أطراف العاصمة، ورافقتنا فرقة من الجنود الرماديين إلى الصحراء حتَّى أوصلتنا بداية الطريق المؤدي للغابة الخضراء، وترجلنا جميعًا من عرباتنا لوداعهم، وأرسلنا من جديد التحيات للملك (سكراجا) وجميع شعب (كوكوانا).**

**قال (آلان) ونحن نسير إلى عرباتنا:**

**- هل تظن أنَّ السحر قد زال؟**

**الكابتن (جود):**

**- حقًا، نحن لم نفكر في هذا الأمر!**

**قلت:**

**- أظن أنَّ السحر يمنع القادمين إلى مملكة (كوكوانا) من بلوغها، ولا يمنع الخارجين.**

**(غوريب):**

**- منذ عرفتك يا سيِّد (حسَّان) لم تخطئ في كثير من الأمور، ولا أظنك تخطئ هذه المرَّة.**

**قال (صموئيل) وهو يسرع إلى عربته:**

**- هذا صحيح، لنسرع بالمغادرة، لقد اشتقت إلى (دربان).**

**انطلقنا من جديد ولم يتحرك الرماديون عن مواضعهم حتَّى اختفينا عن انظارهم، وضعت المِرقاب من يدي، ونظرت إلى القمم البعيدة بزرقتها الباهتة، ناديت:**

**- نومسا.**

**أسرعت إليَّ من مجلسها في الجزء البعيد من عربتنا وهي تبتسم، وأشرت إلى القمم البعيدة الباهتة، لتلقي نظرة وداع أخيرة على آخر المعالم الظاهرة من أرضها، قمم الجبال، الجبال التي تحوي في بواطنها أعظم وأغرب الكنوز، كنوز الملك سليمان..**

**تمت بحمد الله**

## مؤلفات للكاتب
## إبراهيم محمد

### سلسلة الرِحلْة





رِحْلة إلى حدود العالم.. لمعرفة الحقيقة
وإجابة سؤال.. أكروية هي أم مسطحة؟

1- **الرحِيل ج1**
2- **القصابون ج2**

### سلسلة الغَيْهَبُ





حين تغْشى الخُرافة الحقيقة
ويصبح الواقع ضربًا من الخيَّال

1- **بدايات مُخيفة**
2- **النور والظَلام**

### سلسلة عالم جديد





عالم ينهض من رماد حرب طاحنة
يبني حاضره.. وينظر مستقبله

1- **النهوض**
2- **العودة إلى الصفر (قريبًا)**

### سلسلة البُستْان






روايات تبحث لها عن ملجأ

1- **رواية خلاعيّة**
2- **مملكة الأحزان (قريبًا)**

### سلسلة ما بعد النهاية

مع كل نهاية بداية جديدة

1- **كنوز الملك سليمان**

### سلسلة الفندق

قضايا وتحقيقات

1- **جميلة الجميلات (قريبًا)**

**للتحميل من موقع نور للكتب**

**www.noor-book.com/u/المنتهى/books**

**أو التحميل من موقع أرشيف**

**archive.org/details/@user615172**


Wordsonsnowtablet@gmail.com


Wordsonsnowtablet

ما
بعد
النهاية

1



إبراهيم محمد

# كنوز الملك سُليمان

يبدو أنَّ (آلان كوترمين) لم يكتب قصة (كنوز الملك سليمان) التي نشرها السير (هنري رايدر هاجارد) كاملة، لقد كتب جزءًا منها، ونحن هنا ننشر لكم تكملة القصة، وتبدأ الحكاية من بعد عودة الأبطال من مملكة (كوكوانا)، ونجد أنَّهم أصيبوا بلعنة لا تُرفع عنهم حتَّى يكفِّروا عن الجريمة التي ارتكبوها، وهذا يحتاج منهم العودة إلى هناك، إلى مملكة (كوكوانا).. حيث كنوز الملك سليمان..